معرفة الشرق في العصر العثماني

الرحلة الأوربية إلى العراق

الرحالة البرتغالي تكسيرا
الرحالة البريطاني جونس
الرحالة البريطاني جون أشر



ترجمة:
جعفر خياط
عبد الوهاب الأمين



المركز الأكاديمي للأبحاث

معرفة الشرق في العصر العثماني

الرحلة الأوربية إلى العراق

المركز الأكاديمي للأبحاث

معرفة الشرق في العصر العثماني (الرحلة الأوربية إلى العراق)

European trip to Iraq

تأليف : تكسيرا- جونس- جون أشر

تصميم الكتاب وغلافه:المركز الأكاديمي للأبحاث ــ التقويم اللغوي:د.عبد الإله العرداوي ــ تنضيد : علي الحسناوي.

الناشر:المركز الأكاديمي للأبحاث

العراق ـ تورنتو ـ كندا

The Academic Center for Research

TORONTO –CANADA

موثق بدار الكتب والوثائق الكندية/Library and Archives Canada

ISBN ٩٧٨-١-٩٢٧٩٤٦-١٩-٠

بيروت ـ الطبعة الأولى ٢٠١٥

website\\www.academyc٢٠١٠.com

Email – nasseralkab@gamil.com

توزيع : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر : بيروت ـ لبنان

الجناح ـ شارع زاهية سلمان - مبنى مجموعة تحسين الخياط

٢٠٤٧-٧٦١١ بيروت ـ لبنان

Tel:+٩٦١-١-٨٣٠٦٠٨ ـ Fax: +٩٦١-١-٨٣٠٦٠٩

Email:tradebooks@all-prints.com

Website:www.all-prints.com

مقدمة المركز الأكاديمي للأبحاث

تحيل مجموعة الرحلات المجتمعة في هذا الكتاب إلى ثلاثة أجيال متناوبة زارت أهم مقاطعات الإمبراطورية العثمانية وأقاليمها (ولايات العراق) في ثلاث مراحل تأريخية مختلفة في سياقها التاريخي الدقيق، فهي للوهلة الأولى تبدو غير منسقة أو مقصودة الدوافع الشخصية التي تؤطر أغلبها لكن عند التفكير في السياقات الناظمة لتلك الرحلات وأصحابها يلحظ أن هنالك حاجة جماعية لتلك المجتمعات لاستكشاف عالم الشرق ومراكزه الرئيسة ليس فقط سياسياً وإنما انثربولوجياً وإثنياً وذلك ضمن محاولة الإجابة عن الأسئلة ذات الجاذبية في استكشاف الآخر ومعرفته، واللافت للانتباه في تلك الرحلات محتوياتها المتنوعة في تغطية جوانب حيوية كان مسكوتاً عنها في المصادر أو الرواية الرسمية لتلك المرحلة.

فنص هذه الرحلات يميل بمجمله للتوثيق الانثربولوجي والأرشفة التاريخية للعراق على المستويات الإدارة والسياسة. وتقدم تلك المعلومات أو المادة المدونة إلى دوائر القرار التي تبدو تلك الرحلات تمثل حركة واعية في إرسالها وتبني مضموناتها الإرشادية والاستباقية التي تمثل دليل لاحق بعد انهيار الدولة العثمانية وسقوطها.

ذلك من أجل أن تملأ الفراغ من خلال قاعدة بيانات متوفرة وخاضعة للتمحيص والدراية المسبقة والتي على ضوئها تصاغ القرارات ويحدد نوع الإجرائي والتصرف.

د. نصير الكعبي

تورنتو – كندا

٢٠١٤

مشاهدات تكسيرا

في العراق سنة ١٦٠٤

كالسنيور بيدرو تيكسيرا من الرحالة البرتغاليين الذين طوحوا في الآفاق، وزاروا المناطق التي خضعت للإمبراطورية البرتغالية ردحاً طويلاً من الزمن، ولاسيما منطقة الخليج العربي وما كان يحيط بها من الأمصار والبلاد.

وقد أقلع في إحدى رحلاته من جزيرة غوا (Goa) الهندية، مركز النفوذ البرتغالي في تلك الجهات، يوم ٩ شباط ١٦٠٤ متوجهاً إلى إيطالية عن طريق الخليج وما بين النهرين وحلب وقبرص. فمر في طريقه بموانىء الخليج العربي المعروفة وجزره مثل مسقط وقشم وخرق وهرمز وسواحل الجانب الإيراني التي يقول إن أغلبية السكان فيها من العرب.

وقد وصل تكسيرا إلى البصرة في صباح اليوم السادس من شهر آب، حين رست السفينة التي كانت تقله في السراجي التي كانت ترسو أمامها السفن الكبيرة عادة لتفريغ شحناتها من البضائع. وهو يقول إن هذه السفن كانت ترسو في العادة أمام قلعة كبيرة للأتراك مشيدة على ضفة النهر في صدر السراجي. فغادر السفينة واستقل زورقاً صغيراً سار به في النهر المذكورآنفا ما بين بساتين النخيل المكتظة وحقول الذرة حتى وصل إلى مدينة البصرة، بعد أن قطع في النهر مسافة تقل عن الفرسخ الواحد.

ويأتي على وصف البصرة في تلك الأيام فيقول إنها تقع في سهل منبسط يبعد عن شط العرب بمسافة ميلين، وينحصر الاتصال بها عن طريق نهر السراجي نفسه.

وتضم في داخل سورها المبني من الطين وخارجه حوالي عشرة آلاف بيت، عدا الأكواخ الحقيرة المبنية من الخصاص والقصب الذي كان يكثر وجوده في الأنهر المحيطة بها. وكان يحيط بالمدينة كلها خندق عميق يستمد ماءه من النهر المذكور آنفا. ويستفاد من وصفه للمدينة أنها كانت في تلك الأيام ذات تجارة رائجة، وتشيع فيها معظم الصناعات والحرف اليدوية المعروفة.

وقد كانت حامية البصرة وحكومتها تتألف . على ما يذكره تكسيرا . من ثلاثة آلاف رجل من الأتراك والعرب والأكراد، عدا جموع القلاع الموجودة في الخارج. وكان يرأس هؤلاء جميعاً الباشا الذي كانت تنحصر في شخصه جميع السلطات المدنية والعسكرية. وكانت هناك دائرة كمرك خاصة تدر على الحكومة واردات كثيرة تكفي لسد النفقات التي تحتاجها الحامية وسائر الدوائر الحكومية، فضلا عن الفضلة الوفيرة التي كانت تزيد على النفقات فتذهب إلى خزانة الباشوية. وقد وجد تكسيرا في ترسانة الميناء عدداً من المدافع الضخمة، والسفن التي لا تصلح إلا لمطاردة رجال القبائل واستحصال الضرائب منهم.

ومما يأتي على ذكره تكسيرا أنه حينما وصل إلى البصرة وجد فيها شيئاً يلفت النظر، وهو أن عدداً غير يسير من بيوتها الصغيرة والكبيرة كان خرباً متهدماً، وأن العمل كان يجري بسرعة لإعادة تشييد القسم الأكبر منها. وقد تهدم هذا العدد الكبير من البيوت قبل أن يصل إليها بمدة ثمانية أو عشرة أيام بسبب انفجار مروع حصل بغتة في مخزن البارود العائد للحكومة، فاهتزت من جرائه أرجاء المدينة كلها وأتت النار على خمسة آلاف كيس من البارود كانت مخزونة فيه.

وقد وجد في البصرة كذلك أن جميع أنواع العملة الذهب والفضة كانت متداولة فيها، لكن العملة التي كانت تسك في البصرة نفسها كانت عملة النحاس والفضة فقط. وقد كانت اللارينات من الفضة، وهي عملة طويلة الشكل لها فرعان مبرومان، وتبلغ قيمة اللارين الواحد (٦٥) ما قريدي أو ما يعادل ثمانية بنسات. أما

الأخرى فهي (الشاهي) وهي مدورة الشكل مثل العملة الملكية، وتكاد تقارب الأولى في قيمتها أي تعادل حوالي الست بنسات.

ولم يجد تكسيرا أبنية مهمة في البصرة يمكن أن يأتي على ذكرها، غير أنه يتطرق إلى ذكر الحمامات العامة ووصفها ويشير إلى كونها كانت تفتح للرجال من الصباح إلى حد الظهر وللنساء من الظهر إلى مغيب الشمس. ومما يذكره كذلك أنه ذهب مع أحد الذين تعرف عليهم في البلد لزيارة الشيخ محمد بن راشد الذي كان يملك أراض ومقاطعات زراعية شاسعة تقع على ثلاثة فراسخ من البلدة. وقد تحدث الشيخ معه كثيراً بوساطة المترجم وسأله عن كل شيء تقريباً. فتعجب من وضعه وحديثه لأنه لم يكن قد شاهد أي أفرنجي من قبل. ولعل هذا الشيخ من أبناء راشد المغامس الذي كان أميراً مستقلاً يحكم البصرة ويسك النقود باسمه في منتصف القرن السادس عشر، وهو الذي بعث بابنه ووزيره إلى السلطان سليمان في استانبول ومعهما مفاتيح البصرة التي قدماها إلى البادشاه المظفر بعد أن انتزع بغداد من الشاه اسماعيل الصفوي. ويؤيد رأينا هذا قول الرحالة تكسيرا في الرحلة أن البصرة حينما زارها في أوائل القرن السابع عشر لم يكن قد مر على وقوعها في أيدي الأتراك إلا مدة تقارب الخمسين سنة.

وقد تعاقد تكسيرا مع رئيس إحدى القوافل التي تسير في بغداد عن طريق البادية على أن يوصله إلى بغداد مع (عفشه) ولوازمه لقاء مبلغ مقطوع قدره خمسين دوكات. وكان رئيس القافلة رجلاً من أهالي البصرة يدعى الحاج محمد بن صالح العرفاني، تعرف عليه تكسيرا عن طريق رجل كان يهودياً فأسلم وسمى نفسه مصطفى، وكان التجار البرتغاليون والبندقيون الموجودون في البصرة يضعون ثقتهم فيه. ومن طريق ما يشير إليه رحالتنا هذا أنه أخذ معه من البصرة إلى بغداد ثلاثة أكياس من النيل ليتلافى بثمنها نفقات سفره ورحلته.

وفي اليوم الثاني من أيلول ودع تكسيرا أصدقاءه كما يقول، واتجه مع من كان معه نحو سهل فسيح في جنوب البلدة كان من عادة البصريين أن يجتمعوا فيه أيام

الجمع للشراء وللتسلي بألعاب الفروسية وركوب الخيل. والظاهر أنه يقصد بذلك السوق الأسبوعية التي كانت تقام في كثير من المدن والبلدان العراقية في سالف العصر والزمان. وبعد أن تجمع أفراد القافلة هناك ساروا في طريقهم الذي كان يتجه إلى الجنوب في بادىء الأمر، ثم تابعوا سيرهم في سهل كان يتعرض للفيضان في كل سنة، ولذلك وجده مغطى بطبقات الملح البيضاء التي كان يخلفها التبخر الشديد فوق سطح التربة. وبعد ذلك سارت القافلة فوق سد ترابي عال يمتد إلى مسافة أربعة فراسخ حتى وصلت إلى منطقة الدريهمية المعروفة بهذا الاسم حتى يومنا هذا، حيث باتوا ليلتهم تلك ما بين أنقاض البصرة القديمة التي يقول إنها كانت بلدة كبيرة على ما يبدو في نظره. ولم يذكر عن هذه الأنقاض سوى الإشارة إلى جدران الجامع الكبير، وبعض الجدران التي كانت تحيط بالبلدة مع الخندق. ولعله يشير بذلك إلى جامع الإمام علي المشهور هناك الذي لم يبق منه في الوقت الحاضر سوى ركن من أركانه الأثرية. أو لعله يشير بذلك إلى بلدة الزبير الحالية القريبة من الدريهمية، لأنه لم يذكر في رحلته شيئاً عن البلدة المذكورة آنفا عن القبب التي ربما لم تكن قد أنشئت فيها بعد. ثم تابعت القافلة سيرها نحو الجنوب حتى وصلت منطقة جبل سنام الذي يشبهه بالجزيرة القائمة في وسط البحر نظراً لأنبساط السهول المحيطة به من جميع الجهات. وقد وقفت القافلة في البرجسية القريبة إلى الجبل المذكور آنفا حول عدد من الآبار الحاوية على مياه صالحة للشرب. وهو يقول إن الطريق الذي سلكته القافلة هو نفس الطريق نفسه الذي كان يسلكه الحجاج ما بين البصرة ومكة المكرمة.

وبعد أن تجمعت القافلة هناك، وقد كانت صغيرة على حد قوله لأنها لم تكن تتألف إلا من مئة وخمسين جملاً وخمسة وتسعين حماراً واثني عشر حصاناً فقط، اتجهت في سيرها نحو الشمال الغربي حتى وصلت بعد ستة أيام من المسير إلى قلعة في وسط البادية كانت تسمى (القصر). وقد كانت تعود. على ما يقول. إلى الشيخ محمد بن راشد الذي كان قد زاره في البصرة، وفيها دفعت القافلة الرسوم المقتضية لرجال الشيخ

المذكور آنفا. والظاهر أن هذه النقطة كانت تقع في منتصف الطريق ما بين البصرة والنجف التي يطلق عليها تكسيرا اسم (مشهد علي).

ثم تمادت القافلة في سيرها المتجه إلى الشمال تارة، والشمال الغربي تارة أخرى، حتى وصلت بعد سبعة أيام إلى موقع فيه آبار وعيون تسمى عيون السيد. والمعتقد أن هذه الآبار لا تزال موجودة حتى الآن، ولا يزال يطلق عليها هذا الاسم أيضاً، وهي تقع فيما يقرب من الرحبة المعروفة. ويقول تكسيرا إنهم وجدوا بلدة قديمة كبيرة فيها، مع عدد من النخيل وبعض الشجيرات. وبعد أن تركوا عيون السيد، وتابعوا السير لمدة ثلاثة أيام أخرى، بانت لهم من بعيد بحيرة واسعة الأرجاء متكونة من مياه الفرات في وسط البادية. ولا شك في أنه يقصد بذلك ما يسمى في يومنا هذا (بحر النجف).

وبعد مسيرة يومين مرت فيهما القافلة بأماكن تتوفر فيها المياه الغزيرة، وتمتد من حولها مزارع الشعير والحنطة والقطن والخضراوات كما يقول تكسيرا، بانت لهم مدينة النجف من بعيد وكأنها تطل من موقعها العالي على البحيرة المذكورة آنفا. ثم وصلت القافلة إلى مكان في رأس البحيرة ونزلت في موقع مناسب يقرب منه فاستضافها هناك رجل يقال له الشيخ علاوي، وقد أصبح صديقاً حميماً لتكسيرا على ما يظهر؛ لأنه يسميه (صديقي العظيم). وفي هذه المرحلة يصف بحيرة النجف بقوله إنها تستمد ماءها من الفرات، ولذلك يلاحظ أزدياد مقاديره في مواسم الطغيان، وليس لها شكل معين لكنها تمتد بطولها حتى يبلغ محيطها خمسة وثلاثين إلى أربعين فرسخاً، وهناك فيما يقرب من منتصفها ممر ضحل تستطيع الحيوانات اجتيازه خوضاً في المواسم التي تقل فيها المياه في البحيرة. ويقول إن البحيرة شديدة الملوحة، ولذلك يستخرج منها الملح للاستهلاك في بغداد والمناطق المجاورة. ومع ملوحتها هذه يكثر فيها السمك بحجومه وأنواعه المختلفة، ولهذا السبب يسميها الناس هناك (بحيرة الرحمة).

وقد وصلت القافلة إلى النجف في مساء يوم من الأيام فقصدت خاناً من الخانات الكبيرة التي تشبه في شكلها ومنظرها العام الصوامع الموجودة في البلاد الأوربية. ولعل هذا الخان هو الخان القديم الذي يطلق عليه الآن في النجف (الشيلان)، أو قد يكون خاناً آخر يشبهه. وبعد أن يأتي على الجوانب التاريخية المعروفة للمكان وكيفية دفن الإمام في هذه البقعة يأخذ بوصف الروضة الحيدرية وبنائها وزخرفتها. لكنه لا يشير إلى القباب والمآذن بشيء، وإنما يذكر أن البلدة كلها كانت تبدو فيها إمارات الخراب والإهمال. فبعد أن كانت تتضمن ستة الآف إلى سبعة آلاف دار مبنية باتقان في الغالب أصبحت حينما زارها تكسيرا لا يزيد عدد بيوتها المسكونة على الست مئة فقط.

ويقول أيضاً إن البلدة كانت محاطة بسور امتدت إليه يد الإهمال كذلك، فأصبحت تلاحظ فيه الكسرات في أمكنة عدة. وقد كانت البلدة تستقي ماءها من الآبار كما هو معروف، لكنه لم يكن عذباً يستسيغه الشارب. ولذلك فإن الذين كانوا يريدون الماء العذب الفرات كان عليهم أن يأتوا به من جدول خاص كان السلطان سليم قد حفره لإيصال الماء من نهر الفرات نفسه، لكنه لم يصل إلا إلى مسافة غير يسيرة منها. على أن تكسيرا هم لم يستطيعوا استساغة هذا الماء حينما وصلوا إليه لأنه كان متعفناً راكداً. ويقول كذلك إن البلدة كانت بها حاجة ماسة إلى الكثير من الحاجات المهمة مثل الخشب والغنم والدجاج والحنطة والشعير والفاكهة والخضراوات، ولذلك كان يؤتى بها من الخارج على الدوام. وعلى هذا فقد كان طعام السكان معظم ينحصر في التمر والحليب وخبز الحنطة والشعير. ومع أن البحيرة كان يتيسر فيها السمك فإن سكان النجف لم يكونوا يستفيدون منه إلا بمقدار قليل.

ومما يذكره عن النجف يومذاك أيضاً أن أهاليها أناس بيض في الغالب، وأنهم يحرمون الاختلاط بالنصارى واليهود. ويقول كذلك أن آثار الأسواق العامرة المبنية بالطابوق كانت لا تزال شاخصة للعيان، وأن الروضة المقدسة كان فيها الكثير من

النفائس الثمينة ومنها ثلاث ثريات من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة. وكان عدد من الأمراء المسلمين قد أهدوا هذه إلى الحضرة المطهرة.

ثم يتطرق إلى الكلام على الحكم في البلاد ويذكر أن النجف كانت تخضع في تلك الأيام إلى الأتراك الذين كان يدفع لهم أميرها العربي شيئاً غير يسير من الأتاوي. ولعله يقصد ناصر المهنا الذي يقول تكسيرا أنه كان يقيم بالقرب من كربلاءء. ويذكر كذلك أن النجف كان فيها حامية تتألف من خمسين جندياً من الأتراك، وأن هؤلاء لم يكونوا موجودين في البلد يوم زارها هو لأنهم كانوا قد سحبوا إلى بغداد بسبب الحرب التي كانت ناشبة مع الإيرانيين. ولذلك كان السكان أحراراً فيما يفعلون، حتى أنهم كانوا يرتكبون الكثير من أعمال العنف والتعدي من دون خوف أو حياء.

وحينما ارتحلت القافلة عن النجف توجهت إلى كربلاءء فوصلتها في يوم الجمعة المصادف ٢٤ أيلول ١٦٠٤ ونزلت في إحدى الخانات العامرة التي كان بناؤها للزوار يعد من الأعمال الخيرية. ويقول تكسيرا أن كربلاء، التي يسميها مشهد الحسين، كانت بلدة مفتوحة تحتوي على أربعة آلاف بيت معظمها من البيوت الحقيرة. وكان سكانها من العرب، والأتراك الذين كانوا يعينون للإشراف على المناطق المحيطة بها كذلك، لكنهم كلهم كانوا يومذاك قد انسحبوا إلى بغداد بسبب الحرب مع الإيرانيين فأدى ذلك إلى رحيل العجم عنها أيضاً لأنهم لم يعودوا يشعرون بالأمان والطمأنينة.

وقد كانت أسواقها مبنية بناء محكماً بالطابوق، وملأى بالحاجات والسلع التجارية لتردد الكثير من الناس عليها. وبعد أن يشير إلى وجود الروضة الحسينية وتردد المسلمين على زيارتها من جميع الجهات، يتطرق إلى ذكر السقاة الذين كانوا يسقون الماء للناس في سبيل الله وطلباً للأجر. ويقول إنهم كانوا يدورون بقربهم الجلدية الملأى بالماء، وهم يحملون بأيديهم طاسات النحاس الجميلة. ثم يشير إلى تيسر الأرزاق ورخصها، وتوافر المأكولات بكثرة مثل الحنطة والرز والشعير والفواكه

والخضراوات واللحوم. وإلى لطف الهواء فيها، وكون الجو فيها أحسن منه في جميع الأماكن الحاوية على الماء العذب الجيد جداً، وكثير من الأشجار، وبعض أنواع الفاكهة الأوربية على حد تعبيره. وكانت الأراضي تسقى من جدول خاص يتفرع من الفرات الذي يبعد عن البلدة ثمانية فراسخ. وكان هناك فضلا عن ذلك عدد كبير من الأغنام والماشية التي شاهدها ترعى في المراعي المحيطة بالبلدة. وفي نهايتها من جهة الفرات كانت هناك بركتان كبيرتان من الماء مربعتا الشكل، وهو يعتقد أنهما كانتا قد انشئتا للتسلية وشؤون النزهة، مستدلاً على ذلك بما شاهده من أطلال بعض الأبنية والملاجىء الموقتة من حولهما. ولعلها مواقع المخيمات التي كانت تنصب للزوار في مواسم الزيارات الكبيرة.

وهنا يشير إلى أن كربلاءء والنجف كانتا تخضعان يومذاك إلى المير ناصر، أي ناصر المهنا الذي يطلق عليه لقب (ملك). كما يشير إلى أنه كان تابعاً للأتراك الذين كانوا يغتصبون واردات الأراضي الممتدة في المنطقة. ومع هذا كله فقد شاهد تكسيرا بنفسه الأعراب التابعين للمير ناصر يبيعون في وضح النهار خيول وأثاث وملابس وأسلحة أربعة وثلاثين تركياً من رجال الحكومة بعد أن قتلوهم وسلبوهم ما يملكون. وهذا يدل بلا شك على مقدار الفوضى التي كانت تضرب أطنابها في تلك الجهات، وهو يعزوها إلى انشغال الحكومة بالحرب مع إيران. ومما يذكره في هذه المناسبة أيضاً أنه وجد في الخان الذي كان ينزل فيه أربعين سكمانياً مع ضابطهم الخاص، والسكمانيون هم من الجيش المحلي العائد للحكومة. وقد كان الناس يخشونهم لأنهم كانوا متعودين على التجاوز على الناس في كل فرصة أو مناسبة، وكانوا من دون وجدان أو شرف أو ضبط على قوله.

وبعد إقامة ثمانية أيام في كربلاء توجه تكسيرا إلى بغداد مع القافلة في اليوم الثاني من تشرين الأول. وقد سلكت القافلة طريق الحسينية المعروف على ما يبدو، وعبرت الفرات من مكان كان فيه خان حصين واسع الأرجاء بعد أن قضوا ليلتهم

فيه. وقد تم العبور بعبارتين خاصتين تقاضى أصحابهما من أفراد القافلة (معدن) واحداً عن الشخص الواحد أو الحمل الواحد، وهي عملة فضة تعادل في سعرها أحد عشر (ماقريدي) أو بنسا ونصفاً. وقد استغرق عبور القافلة من طلوع الشمس حتى العاشرة زوالية قبل الظهر. وهو يقول إنهم وجدوا في الجهة المقابلة. وهي جهة ما بين النهرين . على حد تعبيره . خاناً كبيراً آخر يقوم في موقع مناسب على الفرات فوق أنقاض مدينة قديمة كانت تسمى (المسيب). والظاهر أن بلدة المسيب كانت موجودة قبل ذلك التاريخ (١٦٠٤) فتهدمت، وعادت إلى الوجود من جديد بعده. وقد كان يبدو للناظر هناك بقايا سورها المحاط ببساتين وحقول يانعة تستمد ماءها من الفرات بوساطة (ماكنة خاصة تتألف من قرب عدة وتسحبها الثيران).

وحينما سارت القافلة في طريقها إلى بغداد مرت بخان كان مبيناً بين عدد من التلول، وكانت قد شيدته للأجر والثواب امرأة محسنة قيل إنها كانت زوج أحد ضباط الباب العالي الكبار. ولعل موقع الخان هذا هو في (خان الحصوة) الذي كان يشاهد قائماً ما بين عدد من التلول إلى ما قبل سنوات عدة فيما يقرب من (القرية العصرية) الحالية الكائنة في مفرق الحلة – كربلاء على الطريق العام إلى الحلة. وقد مرت القافلة بعد ذلك في خان آخر يقوم في موقع يقال له (بير النص). وربما كان هذا الخان في موقع مخفر الشرطة الحالي الذي لا يزال يسمى بهذا الاسم نفسه. وقد وجدوا فيه عشرة إلى اثني عشر جندياً من الجنود الأتراك للمحافظة على الأمن في الطريق. وأخيراً وصل تكسيرا إلى بغداد في يوم الاثنين ٤ تشرين الثاني ١٦٠٤، فكان في استقباله رجل ألماني مقيم في بغداد اسمه يواكيم أوزمكروخ، كان قد تعرف عليه قبل سنوات في الهند، فأخذه إلى بيته وأقام فيه. وقد دخل جانب الكرخ من باب الحلة فعبر الخندق العريض العميق المحيط به من فوق قنطرة من القنطرتين الوحيدتين الممتدتين عليه. وهو يقول إن الخندق حينما حفر أخذ ترابه فأقيمت به سدة ترابية عالية بالقرب من الخندق لتقوم مقام السور الذي يرد عادية الأعراب وهجماتهم عن ضاحية الكرخ. وقد فعل ذلك في سنة ١٦٠١ حسن باشا الوزير، الذي شيد في المنطقة نفسها سوقاً وخاناً ومقهى وبناها

كلها بشكل متقن ممتاز، فظلت تحمل اسمه ردحاً من الزمن. وكانت أبواب الخان والجامع الحديد، الذي بناه الباشا نفسه (والذي لا يزال يسمى جامع الوزير) مبنية بالحجر الذي يؤتى به من الموصل. ويفهم مما كتبه رحالتنا هذا أن جانب الكرخ كان فيه يومذاك حوالي ثلاثة آلاف بيت مسكون، مع أسواق وحمامات عامة وخانات للقوافل.

أما جانب الرصافة فقد كان يتصل بالكرخ بوساطة جسر طوله مئتان وخمسون خطوة كما يقول تكسيرا. ويتكون من (٢٨) زورقاً كبيراً يحجز بين كل اثنين منهما فراغ بعرض أحد الزوارق نفسها، أي بعرض ٤ خطوات. وكان هذا الجسر يربط من الطرفين بالجدران والبيوت بسلاسل ضخمة من الحديد، ويقطع كل ليلة، وفي أثناء النهار لعبور السفن أو عندما تشتد الريح والعواصف. وقد كان الجسر يقطع كذلك في أثناء النهار في أيام الجمع حينما يكون الباشا والناس في الجوامع والمساجد لتأدية صلاة الجمعة، ثم يفتح من جديد بعد انتهائهم منها. وكان أصحاب البضائع والأحمال يدفعون رسوماً خاصة للعبرية بمقدار (معدن) أو بنس ونصف لكل حمل. هذا ويعتقد تكسيرا بأن ماء دجلة أصفى وأنقى وأخف وأعذب بكثير من ماء الفرات، وأن الكثير من الأسماك تعيش فيه فيأكل منها المسلمون.

ومما يتطرق إليه وجود المقاهي الجميلة المطلة على دجلة في جانبي الكرخ والرصافة. وهو يصف القهوة وكيفية صنعها وتقديمها وصفاً يستفاد منه أنها لم تكن معروفة عند الأوربيين في تلك الأيام، ويشير إلى أنها كانت تستورد من بلاد العرب إلى العراق وإيران والبلاد التركية. ويضيف إلى ذلك قوله أن أصحاب المقاهي كانوا يستخدمون الفتيان الوسيمين والموسيقى لاجتذاب الزبائن، وأن الذين يرتادون المقاهي كان يزداد عددهم في ليالي الصيف ونهارات الشتاء.

وقد كان القادم من الكرخ إلى الرصافة عن طريق الجسر يدخلها من باب كبيرة توجد بجانبها بوابات صغيرة خمس تؤدي إلى النهر. وكانت الرصافة، التي يعدها

تكسيرا مدينة بغداد نفسها، يبلغ طول صدرها المطل على النهر حوالي ميل واحد تقع في طرفه الشمالي القلعة التي كان يسكنها الباشا الوالي. وهي متسعة أكثر من كونها حصينة منيعة، ويحيط بها خندق يبلغ عمقه ثمانية أذرع وعرضه اثني عشر ذراعاً. وكان الباشا يسكن في داخلها مع حرسه الخاص وحاشيته ومتعلقيه الذين يعتمدون عليه في معيشتهم، ويبلغ عددهم ما بين الألف وخمس مئة والألفين. وتتصل باب القلعة الجنوبية بسور المدينة الذي تنفتح ففيه باب كبيرة تؤدي إلى طريق إيران. ويحيط بالمدينة من تلك الجهة سهل واسع وأراض خصبة تحرث وتزرع في كل سنة. وقد تغمر هذا السهل في بعض السنين مياه الفيضان فتضطر الناس إلى التنقل فيه بالزوارق.

ويبلغ طول السور المحيط بالمدينة حوالي فرسخ ونصف، وهو يدور حولها على شكل شبه دائري تتصل نهايته بالنهر. لكن هذا القوس الكبير فيه عدد من الزوايا للأغراض الدفاعية. وكان في السور بابان أخريان تؤديان إلى البر، أحدهما تقع في وسط السور وتقع الأخرى في نهايته. ويدور حوله خندق عميق، كما أنه مبني بالطابوق وفيه عدد من الزوايا والحصون التي تكون أربعة منها بارزة كبيرة ومبنية بناء محكماً لتتحمل هزات المدفعية المنصوبة فوقها. فهناك عدد من المدافع الثقيلة الجيدة، المصنوعة كلها من النحاس الأصفر.

وللباشا في بغداد السلطة العليا المطلقة في الشؤون المدنية والعسكرية على ما يروي تكسيرا. غير أن الغرباء كان لهم حام خاص يعينه السلطان للعناية بهم وحماية تجارهم من تعديات الضباط وغيرهم. وهو يقوم بعمله بجد وإخلاص، كما ثبت لتكسيرا من حادثة معينة شاهدها بنفسه. فقد لاحظ أن هذا الموظف الجريء اضطر من أجل حماية رجل من الأجانب والمحافظة على حقوقه إلى توقيف بعض الضباط الكبار وإجبار الباشا على الكف عما كان يعتزم القيام به.

أما القوات العسكرية التي كانت معينة للدفاع عن المدينة والمناطق المرتبطة بها فيبلغ عددها بوجه عام حوالي أربعة عشر ألف رجل من الخيالة والمشاة معاً. وقد كان

يقيم حوالي أربعة إلى خمسة آلاف جندي من هؤلاء في المدينة، وكان ينتمي حوالي ألف وخمس مئة من هؤلاء إلى الجنود الانكشارية.

وقد كانت توجد في المدينة يومذاك أطلال بارزة لعدد من الأبنية المهمة التي كانت عامرة حينما كانت بغداد في أيدي الإيرانيين كما يروي تكسيرا، مثل جامع الخلفاء وبعض الأبنية الأخرى المطلة على النهر، ومثل المدرسة التي كانت مستشفى في يوم من الأيام، وعقود الأسواق وبعض المآذن التي أخذت تتهدم بمرور الزمن. وفيما عدا أطلال هذه الأبنية لم يشاهد رحالتنا من الأبنية التي تستحق الذكر سوى جامعين كبيرين: أحدهما الجامع الذي يشاهده الداخل من باب المدينة الكبرى إلى يساره، وقد أنشأه الباشا ليصلي فيه هو نفسه تخليداً لولي من أولياء الله يقدسه بصفة خاصة. وهو على ما يبدو من الخارج بناء باهض التكاليف لم يستطع تكسيرا الدخول إليه؛ لأن غير المسلمين كانوا يمنعون من الدخول إلى الجوامع والأماكن المقدسة، وإذا صادف أن تمكن أحدهم من الدخول وقبض عليه فهو إما أن يقتل وإما يجبر على ترك دينه واعتناق الديانة الإسلامية. وكان الجامع الآخر الذي لفت نظره يقع في نهاية المدينة بالقرب من بساتين النخيل، وكان هذا الجامع ينقل الماء من النهر إليه من فوق قنطرة خاصة بطريقة بارعة.

ومع أن ثلث المساحة التي كانت منحصرة داخل أسوار بغداد في تلك الأيام كانت عبارة عن فضاء خال أو ممتلىء بالنخيل فإنها كان يوجد فيها على ما يقول تكسيرا فوق الألفي بيت[1]. وكان أغلب هذه البيوت من البيوت الكبيرة المتسعة، لكن بناءها كان حقيراً في الغالب، وسطوحها منبسطة دائماً، وأغلبها لا تطل شبابيكها على الطريق وأبوابها صغيرة جداً. وكانت جميع هذه البيوت مبنية بالطابوق المستعمل القديم الذي كان يؤتى به من خرائب الأبنية الأثرية القديمة، ولذلك فإن الكثيرين من السكان

---

[1] يبدو أن صاحب الرحلة قد اخطأ في هذا التقدير إلى حد كبير، ولاسيما إذا ما قارنا هذا بما ذكره من عدد بيوت البصرة وكربلاء و غيرهما.

كانوا يعيشون على التنقيب عن هذا الطابوق ونقله إلى حيث كانوا يبيعونه. ومن أجل هذا كان الذي يخرج إلى مسافة أربعة أو خمسة أميال في خارج ضاحية الكرخ يجد الأرض ملأى بالحفر الكبيرة التي كان البعض منها عميقاً جداً.

أما سكان بغداد فيقول رحالتنا عنهم إن معظمهم كانوا من العرب المتحضرين، والبقية من الأتراك والأكراد والعجم. لكن العجم لم يكونوا كثيرين في تلك الأيام؛ لأن قسماً كبيراً منهم كان قد غادر المدينة بسبب الحرب مع إيران. وكان هناك حوالي مئتين أو ثلاث مئة بيت لليهود، ويدعي سكان عشرة أو خمسة عشر بيتاً من تلك البيوت بأن آباءهم وأجدادهم كانوا قد وجدوا في العراق منذ أيام سبي بابل على عهد بختنصر. وكان اليهود يعيشون في محلتهم الخاصة مع مطلق الحرية لمعابدهم وعبادتهم. أما النصارى فقد كان هناك منهم عشرة بيوت للأرمن وثمانون بيتاً للنسطوريين. ويقول تكسيرا، ولطيفو المعشر، وكان الرجال منهم يركبون الخيل في الغالب، وهم نظيفون يلبسون الألبسة الثمينة. وكذلك كان النساء اللواتي كن جميلات في الغالب وذوات عيون ساحرة. وقد كن يتحجبن في الشوارع بأحجبة غير سوداء، ويضعن فوق أوجههن براقع رقيقة سوداء يمكنهن النظر من خلالها.

وكان هناك كذلك عدد كبير من الحمامات العامة التي تثير في الغريب شيئاً كثيراً من حب الاستطلاع، وكان بعضها يخصص للنساء فقط. وقد كان يوجد في وسط المدينة على مسافة قريبة من النهر سبعة أو ثمانية أسواق طويلة تمتلىء دكاكينها بالسلع المختلفة والمنتجات المحلية، بالإضافة فضلا عن من الخانات التي كان يشتغل فيها التجار بأعمالهم. وكانت كلها تسد في الليل وتقفل بسلاسل الحديد. ويذكر تكسيرا في هذه المناسبة أن الأسواق كان لها (بلوك باشي) خاص يتولى حماية البائعين والشارين معاً، ويمنع حصول الاعتداء أو الغش. وقد كان يعمل أيضاً على حل المنازعات بالحسنى أو بالقوة كما تقتضيه الظروف والأحوال.

وحينما يعجز عن ذلك كان يأخذ المتخاصمين إلى القاضي. وهذه في رأي تكسيرا كانت طريقة ممتازة ذات تأثير بيّن في المحافظة على حقوق الناس وهو يقول إنه لم ير خلال الشهرين اللذين أقام فيهما ببغداد أي تخاصم بين الناس في الأسواق أو اعتداء عليهم، على الرغم ظروف الحرب وكثرة وجود الجنود.

وقد كانت بغداد تتمتع بجو صحي مناسب في تلك الأيام. كما كان الناس يستخدمون الخيل والبغال والحمير والجمال والثيران لنقل الأحمال والأمتعة، ولذلك كان يلاحظ وجود العدد الكبير من هذه الحيوانات كلها، ويقول تكسيرا كذلك إن البلاد كانت تنتج الكثير من القطن والحرير، وكانت هذه المنتجات تغزل كلها فتستخدم في الصناعة المحلية ببغداد التي كان يوجد فيها ما يزيد على أربعة آلاف نول لحياكة الأقمشة الصوفية والقطنية والحريرية ومنسوجات الكتان، وجميع هذه الأنوال كانت دائبة في شغلها وغير عاطلة عن العمل.

ومما يذكره تكسيرا أيضاً أن جميع سكان بغداد تقريباً كانوا يتكلمون بثلاث لغات: العربية والتركية والفارسية، لكن اللغة الغالبة كانت التركية على ما يقول. وقد كان التجار في أيام السلم، وحتى في أيام الحرب، يترددون على بغداد من الهند وإيران ومعهم بضائع وسلع وافرة عن طريق البصرة والنهر أو البر. وكانوا يردون كذلك من ديار بكر وحلب ودمشق وطرابلس وسائر البلاد مع أنواع المنتجات والسلع. وكانت هناك ثلاثة مراكز للكمرك يستوفي كل منها الرسوم المقررة، وكان أحدها في جانب الكرخ للقادمين من سورية، والمركزان الآخران في الرصافة للقادمين من سائر الجهات. وكانت هناك فضلا عن دار لسك النقود الذهب والفضة والنحاس، وداران للتدريب على الرماية بالقوس والنار معاً. ومن الأشياء الأخرى التي لاحظها تكسيرا بعناية خاصة على ما يظهر وجود سوق كبير في بغداد لصاغة الذهب والفضة، الذين كانوا كلهم من المسلمين. وكان هؤلاء يصنعون الكثير من المصوغات والمصنوعات الثمينة والغريبة.

أما الباشا الذي كان متربعاً على دست الحكم في بغداد حينما زارها تكسيرا فهو خصي جركسي يدعى يوسف باشا على ما يذكر. وكان هذا الباشا يحكم في البصرة ثم نقل إلى بغداد، وغادر البصرة متوجهاً إليها قبل وصول تكسيرا نفسه إلى البصرة من الهند بثلاثة أيام. ومن طريف ما يذكره في الرحلة أن منصب يوسف باشا كانت تقدر قيمته بمئتي ألف جيقين، أو حوالي مئتين وخمسين ألف دوكات. والجيقين عملة يطلق عليها في بعض المراجع (سكن) وهي اسم خاص للدنانير العثمانية والبندقية الذهب القديمة، وتقدر قيمة الواحد منها بتسعة شلنات. ثم يقول إن قيمة هذا المنصب تقدر بأكثر من هذا في أيام الحرب، لأن الباشا عند ذاك يخول صلاحيات استثنائية لا حدود لها. وحينما كانت قافلة تكسيرا موشكة على مغادرة بغداد وصل إليها من استانبول كما يذكر خمسة عشر مبعوثاً (قيوجياً) ملكياً يحملون الفرمان بتعيينه في الولاية لمدة سبع سنوات. وقد جاءوا مع الفرمان بالخلعة والسيف والسلسلة الذهبية، وكانت هذه هدايا السلطان التي يخلعها على من يقرر ترفيعه إلى مثل هذه المرتبة الكبيرة. ومن الجدير بالذكر أن أول باشوية من باشويات الإمبراطورية العثمانية التي كانت تمنح الخلعة وسائر الهدايا عند تعيين من ينسب لاشغالها كانت باشوية مصر، والثانية باشوية بغداد، والثالثة باشوية تبريز على حد قول تكسيرا في الرحلة.

ومن الحوادث التاريخية التي يذكرها أيضاً قوله إنهم حينما دخلوا إلى بغداد كان أهلها في حالة ذعر وخوف شديد من الإيرانيين. ويشير بذلك إلى الحادثة التي شن فيها الله ويردي خان أحد قواد الشاه عباس الصفوي غزوة مفاجئة على بغداد وأسر خارج أسوارها ثلاثة مئة أسير، ثم عاد من حيث أتى بسرعة. كما يشير إلى الهجمات التي شنها الإيرانيون بعد هذا الحادث على الأنحاء الشمالية من العراق.

وقد جاء في الرحلة ما يفهم منه أن تكسيرا اضطر إلى التأخر في بغداد بسبب الحالة السيئة التي كانت موجودة في حلب، لأنه كان يريد السفر عن طريقها إلى استانبول. فقد بقيت حلب في حالة حصار لمدة ثلاثة أشهر لأن الباشا الذي كان يحكم

فيها رفض الإذعان لأوامر السلطان الصادرة بتحويله منها ووقف في وجه الباشا الجديد الذي تم تعيينه في مكانه. وأخيراً انفرجت الأزمة فرحلت قافلة تكسيرا عن بغداد في صباح الاثنين المصادف ١٣ كانون الأول ١٦٠٤ متجهة إلى حلب عن طريق عانة، وقد كانت تتألف من مئة وثلاثين جملاً وخمسة وسبعين حماراً.

وبعد أن قطعت القافلة فرسخاً ونصف لا غير وقفت لتدفع الرسوم أو الأتاوي إلى وكلاء المير ناصر المهنا أمير البادية الذي كان مسيطراً على منطقة كربلاء والنجف أيضاً. وكانت النقطة هذه تسمى (باش دولاب)، ثم تابعت القافلة سيرها المعتاد معقبة طريق الضفة اليسرى من الفرات (جهة ما بين النهرين أو الجزيرة) فمرت بخرائب عقرقوف، والعوينات، وأم الروس، ومشهد السندابية، وعكلة الشيخ محمد، والمنزل، وكمكة، وأبو رجمو، والسيلات، ومن هناك تفرق المسافرون فذهب بعضهم متوجهاً إلى هيت وبعضهم الآخر إلى حديثة، وآخرون إلى جبه من طرق عدة تؤدي إلى النهر، وحينما استأنفت القافلة سيرها إلى عانة مرت بالزوية، والناصرية، ومضيق الناصرية، ووادي جربه وهو حدود بلدة عانة كما تقول الرحلة. وقد وصلت القافلة إلى عانة في صباح يوم الجمعة المصادف ٢٤ من الشهر، ولكن بعد أن باتت ليلتها الأخيرة في صوب الجزيرة كما كان يسميه الأهلون، وهو صوب راوة، فعبر إلى عانة نفسها (أي صوب الشامية) رفيق تكسيرا للحصول على رخصة بالدخول إليها من سلطات الشيخ أبي ريشة أمير البادية في تلك الجهات. وقد استغرق الطريق من بغداد إلى عانة أحد عشر يوماً.

لكن تكسيرا لم يورد اسم راوة مطلقاً، غير أنه على ما يظهر كان يعدها الجانب الثاني من عانة نفسها ويقول في وصفها إن جانب بين النهرين من البلدة يبلغ طوله حوالي ميلين، وهو قليل السكان ولا يسكنه إلا عدد قليل من العمال.

أما عانة نفسها فيتحدث تكسيرا عن تاريخها أولاً ويقول إنها بلدة قديمة، وقد ورد ذكرها في الإنجيل (أصحاح الملوك الثاني، الفصل التاسع عشر) الذي ينص على

أن سنحاريب العاهل الآشوري الكبير تساءل في تهديده لحزقيا عن صمير ملك حمض، وملك أرباد، وملك سيفارفيم، وعانة، وآفا. ولا شك في أن سنحاريب كان لابد له من أن يخضع عانة وما جاورها من المناطق قبل أن يزحف على فلسطين وغيرها في تلك الجهات.

ومما جاء في الرحلة عن موقع عانة أنها تقع على جانبي الفرات فوق التواء فيه يتجه إلى الشمال الشرقي والجنوب الغربي. وفي الطرف الشمالي من هذه الدورة توجد جزيرة في النهر يبلغ طول محيطها حوالي ميل واحد، ويدور حولها جدار تطرقت إليه أيدي البلى والخراب. وكانت هناك في النهاية الشمالية من البلدة قلعة تضم بين جدرانها حامية تركية متألفة من مئة جندي، مع بعض المدافع، وكانت تنتشر في خارجها البيوت والنخيل، والبساتين، مع سوق وحمام عام كان يعود للإيرانيين حينما كانوا مستولين على بغداد وهذه الجهات في تلك الأيام. ويقول تكسيرا إن جانب الجزيرة كان عرض الأرض المنبسطة فيه ما بين النهر والجبل يتراوح بين المئة والمئتي خطوة فقط، بينما يبلغ ذلك في الضفة الغربية (الشامية) شيئاً يتراوح بين الخطوتين فقط والخمس مئة خطوة. وكان طول هذه الضفة - وهي عانة الأصلية - يزيد على فرسخين. ويكاد وصفه لأزقتها وبيوتها وما أشبه في تلك الأيام يشبه ما هي عليه في يومنا هذا. وكان لكل بيت بقعته الصغيرة المزروعة بالكثير من النخيل وأشجار البرتقال والليمون والكباد والكمثري والسفرجل والتين والرمان بجانب الكثير من أشجار الزيتون التي كانت تضاهي أشجار الكستناء في ضخامتها.

وقد كان عدد البيوت في جانبي النهر حوالي أربع مئة بيت، وكانت مئة وعشرون من هذه البيوت تعود لليهود العرب - كما تقول الرحلة - الذين لم يكونوا أغنياء ولكنهم كانوا يعيشون عيشة محترمة كانوا فيها على وئام مع أمير المنطقة ووكلائه. وكان المسلمون من سكان عانة ينقسمون - على حد قول تكسيرا - إلى فريقين: فريق يتحدر من صلب سكان العراق الأقدمين، وهم مسلمون بالاسم فقط. وقد كان

أسلافهم القدماء يعبدون الشمس، ولا يزالون يحتفظون بمثل هذه المعتقدات وسائر الخرافات في دخيلة أنفسهم. وللبرهنة على ذلك يقول إن أحد هؤلاء كان يكثر التردد عليه في الخيمة ويتحدث إليه وإلى رفيقه عن الشمس على الدوام. أما الفريق الثاني فقد كانوا غرباء عن عانة في الأصل، واستوطنوا فيها بالتدريج. وكان أمير البادية المسيطر على عانة وما حولها الأمير أحمد أبو ريشة، وهو مع كونه أقوى رئيس في تلك الجهة من بلاد العرب فقد كان خاضعاً للأتراك الذين أقطعوا الكثير من هذه المناطق وغيرها إلى رجاله وأهله. فإن الرسوم التي كانت تفرض على جميع البضائع والسلع المارة من هذا الطريق كانت تدفع إلى الأمير مع شيء بسيط من الاعتراف بحق الأتراك، وقد كانت الرسوم تفرض على الأحمال وليس بموجب الأوزان أو الأعداد أو القيمة. وقد كان أصحاب الأموال يدفعون خمس دوكات عن الحمل الواحد من البضائع الثمينة كالحرير والأقمشة والنيل والبهارات وما أشبه، أما العفص والتمور وما أشبه فكان يدفع دوكات واحدة عن الحمل الواحد منها.

ويقول تكسيرا إن منطقة عانة غنية بالتمور، وإن كثيراً من أهاليها يعيشون على تصديرها إلى الشام وطرابلس وحلب، وإن وسائل العيش والمأكولات فيها رخيصة عدا الرز الذي كان يؤتى به من بغداد التي تتبع عانة إلى حكومتها. غير أنه يشكو من عدم وجود أسواق يستطيع الغريب شراء ما يحتاجه من المأكولات وغيرها فيها. وهو يقول إن الأمير أبا ريشة هو الذي كان يمنع إنشاء الأسواق فيها، خوفاً من هجمات الأعراب عليها، على أنه يذكر أن كثيراً من الحاجات كان يمكن شراؤها من البيوت.

ومما ذكر في الرحلة كذلك أن عانة كان فيها حوالي ثلاثين سفينة تحمل الركاب والسلع إلى البلدان الأخرى الواقعة على الفرات شمالاً وجنوباً. وكان النهر فيه طواحين عدة، ولعله يقصد النواعير، كما كان يحتوي على الكثير من السمك الذي لا يأكل الأهلون إلا القليل منه.

وفي الرحلة إلى جانب ذلك كله إشارة إلى أن عانة كانت مركزاً مهماً في طريق القوافل التجارية. فحينما كان تكسيرا فيها تعرف على طائفتين من التجار الذين كانوا ينتظرون انفتاح الطريق إلى حلب. وقد كان أحدهما من التجار الأكراد الذين يتاجرون بالحرير، أما الفريق الآخر فقد كانوا من تجار الموصل الذين يتاجرون بالأقمشة الرقيقة والعفص الذي كان يشحن في كل سنة إلى حلب وطرابلس والشام وبغداد،إذ أن ما يزيد على اثني عشر ألف حمل بعير من العفص كان يشحن سنوياً من بغداد إلى البصرة ليصدر منها إلى الهند وحتى إلى الصين. وقد مر في في أثناء مكوثه في عانة كذلك عدد غير قليل من التركمان مع قطعانهم الكبيرة من الأغنام، وهم في طريقهم إلى سورية لبيعها في الشام وطرابلس وحلب وحتى في استانبول. وكانوا يدفعون الرسوم وأجور المرور في عانة بمقدار عشرين دوكات للألف رأس منها.

ومن طريف ما يذكره تكسيرا فضلا عن ذلك، أنه شاهد في جميع هذه البلاد أن الرجال كانوا يغزلون الكثير من الصوف بالمغازل، بينما تقوم النساء بغزله بالدولاب. لكنه يقول إنه لا يتذكر أنه شاهد أي مكان آخر يفوق عانة بكثرة الرجال الذين كانوا ينصرفون إلى الغزل بالمغزل على الدوام.

هذا وبعد أن مكث تكسيرا ثلاثة وعشرين يوماً في عانة تمكن من التوجه بقافلة جديدة إلى حلب، فغادر عانة في يوم الخميس المصادف ١٣ كانون الثاني ١٦٠٥. لكنه لم يكن مرتاحاً خلال مدة مكثه فيها، لأنه يشير في الرحلة إلى أن أصحاب القافلة، وبعض تجار عانة الذين جاءوا معه من بغداد، ووكلاء أبي ريشة فيها، كانوا يصطنعون الحجج لتأخيره. ومن جملة ما كانوا يهددونه به هو تخوفهم من دندل ابن أخي الأمير أبي ريشة الذي كثيراً ما كان يقطع الطريق على القوافل الذاهبة إلى الشام ويسلبها. وكان من المعتقد يومذاك أن دندلا هذا كان هو الوريث الشرعي للإمارة فاغتصبها عمه منه، ولذلك كان يتحداه ويناوئه في كثير من الأحيان. لكن تكسيرا يقول إنهم برهنوا للجهات المختصة في الأخير أن هذا الخطر قد زال منذ مدة، لأن أحد

المسافرين وصل من البادية وأخبر بأن دندلا وأخاه قد رحلا إلى جهات مصر مع أتباعهما.

وقد سار تكسيرا إلى حلب عن طريق مسكنة وطيبة، وبعد ذلك قصد الاسكندرونة ومنها أبحر إلى جزيرة قبرص، ثم أبحر من قبرص إلى جزيرة زانت ومنها إلى البندقية في إيطاليا، وبذلك انتهت رحلته.

بغداد في سنة ١٨٥٣

بقلم

جيمس فيلكس جونس

تمهيد:

في منتصف القرن التاسع عشر، أوفدت (حكومة بومباي) الرحالة والمستشرق والمساح الإنكليزي المعروف (جيمس فيلكس جونس) مكتشف موقع مدينة (أوينس) القديمة إلى العراق لكي يقوم بمسح طبوغرافي كامل للنهروان القديم وتحديد مساره.

وقد قام (جونس) بهذه المهمة وكتب (مذكراته) أو يومياته عن هذه الرحلة، مع تقريره الشامل إلى (حكومة بومباي) وقامت هي بدورها بطبعه مع ما فيه من التقارير والخرائط في مجلد ضخم يعد أهم ما دون في ذلك العصر عن المنطقة.

ومن جملة فصول هذا التقرير الضخم فصل كامل عن إقليم بغداد: The province of Baghdad.

وقد انتهت رحلته في سنة ١٨٥٢ ولكن كتابه الضخم عنها لم ينته طبعه إلا في سنة ١٨٥٧ من قبل (حكومة بومباي).

ويضم الكتاب جداول تفصيلية عن جميع ما يتصل بالحياة اليومية للمنطقة التي سر منها، من نواحيها الاجتماعية، والطبوغرافية، والمالية، والزراعية، وكل ما له علاقة بالفرد والمجتمع. وهو المرجع التدويني الوحيد الذي استقى منه جميع الباحثين طيلة هذه المدة – وفي بعض الأحيان دون ذكر المصدر.

وقد كان فصل (إقليم بغداد) من أهم فصول هذا السفر النفيس لما ضمه من معلومات ومشاهد لم يبق منها أثر الآن. وهو مزود بالصور التسجيلية لمختلف أنواع المباني- وذلك عدا عن الخارطة النفيسة للمدينة في ذلك الحين، وهي بذاتها تعد إنجازاً لا مثيل له من جميع الوجوه.

ولذلك آثرنا نقله ونشره تباعاً في (المورد) مع الخارطة اليتيمة وتصاويره المختلفة.

ملاحظات عن خارطة بغداد:

يمثل مخطط هذه الخارطة المدينة التي كانت في يوم من الأيام من أهم مدن العالم. وقد عجزت ستة قرون من الخراب الشامل الذي تعرضت له على يد الغزاة الكثيرين، أن تحيق بها التدمير التام، وإن كانت في حالتها المتصاغرة اليوم لتعطي صورة عن قوة نشاطها القديم عندما أقامها الخليفة المنصور قبل أحد عشر قرناً. فقد ظلت خمسمائة عام موطن الخلافة العباسية، كما بقيت مقر إمبراطورية عالمية تخللتها حقب انقطاع بين آونة وأخرى.

وموقع المدينة فيه مختلف المغريات بالنسبة للمؤرخ والمدارس. فما تزال المدينة – على الرغم من انحطاطها – تمثل العواصم الكبيرة التي ازدهرت في التاريخ، وأحاطت بها الكتابات العطرة والملوثة التي رافقت المسيحية نفسها. فبعد الهدم التام الذي أحاق بسلوقية وقطيفون- حيث انشأ خمسة من الآباء المبشرين الكرسي البابوي – لجا (المتربوليون) إلى هذا المركز وظل لقب (كبير أساقفة بابل) لاصقاً بذلك البحر الخضم من البابوية التي يلقي لقبها احتراماً يزيد في حرمته على أي شيء آخر. وعلى الرغم من أن الخليفة المنصور قد عرف عنه أنه هو الذي بنى بغداد، فليس هناك إلا القليل من الشك – كما تدل على ذلك البقايا الباقية من الآثار – على أن هذه المدينة البابلية كانت تحتل هذا الموقع منذ مدة طويلة قبل تأسيس الخلافة في تلك البقاع.

وليس في نيتي أن أقف طويلاً أمام تاريخ المدينة، ولا دواعي بنائها من قبل الخليفة المنصور الذي انتقاها لكن تكون موئلاً لـ (بيته) العباسي. فتلك هي العادة المتبعة في التاريخ القديم منذ الغزو البربري حتى اليوم. ويبدو أن الجانب الغربي من دجلة قد تم انتقاؤه لكي يكون الموقع الأصلي لبغداد. أما الجانب الكبير من المدينة الذي يقع الآن على الجانب الشرقي من النهر فقد نشأ من موقع عسكري ظل يتنامى بعد ذلك لكي يتناسب مع زيادة السكان بعد أن أخذت العوائل الآتية من البوادي

تستقر، وكان النازحون يفدون إليها من أماكن بعيدة. وازدادت المدينة اتساعاً بسبب البقايا المتناثرة حوالي خرائب (قطيسيفون) و (سلوقية)، وبسبب الأسرى وغيرهم ممن جيء بهم من البلاد التي امتدت إليها سلطة الخلافة، حتى أصبحت المدينة وما يضاحيها مكتضة بالسكان. وقد أسهب الكتاب كلهم حول الجموع الكبيرة التي تألف منها سكانها في عهود الرخاء وإن كان هناك تباين في التعداد. فقد قيل إن تشييع جنازة (ابن حنبل)[١] الذي توفي في بغداد سنة (٨٥٥) ضمت ثمانمائة ألف رجل وستين ألف امرأة، وأن حوالي عشرين الف كافر قد أسلموا يوم وفاته، ومع التسليم بأي احتمال للمبالغة في هذا الشأن، ولرقم الثلاثمائة وستين حماماً الذي ذكره المؤرخون الآخرون[٢]، فإن علينا أن نسلم بكثرة ما كان فيها من جموع ولاسيما في المناطق المتروكة التي تشهد بقايا من القنوات المهجورة بما يؤيد هذه الحقيقة.

ثم أن الآلاف الذين قتلوا بعد احتلال بغداد من قبل هولاكو في سنة (١٢٥٧ وتيمورلنك في سنة (١٤٠٠) تلك المجازر التي لا تصدق نبين كم كانت أعداد تلك الجموع. فقد ذبح الأول بدم بارد- على حساب أقل التقديرات – ثلثمائة ألف من الذين دافعوا عن المدينة، على حين أن الثاني أقام هرمين على بابي المدينة من رؤوس التسعين ألفاً من أهاليها الذين كانوا يعدون من ذوي النفوذ.

أما اليوم فإن تعداد نفوسها يبلغ حوالي ستين ألفاً. وقد تصاغر العدد من مائة ألف قبل ثلاثين عاماً لأسباب متعددة، كان أهمها الطاعون الكبير والفيضان الذي أحاق بها في سنة ١٨٣١ والفيضانات الصغيرة الأخرى التي سببها سوء إدارة الحكام الجشعين المتعاقبين.

لقد تم تخطيط المدينة في عام (١٤٥) للهجرة – ٧٦٢م- وازدهرت بسرعة. ولكنها بلغت ذروة ازدهارها على عهد الخليفة (هارون الرشيد) ومن تلاه ممن خلفوه.

---

[١] يراجع كتاب أبي الفدا وكتاب دبرلوت عن الإسلام.

[٢] يراجع كتاب (تاريخي بغداد) وكتاب خريدة العجائب حول الموضوع.

وقد بدا في بعض الأحيان أن ثروة العالم كله قد تركزت حقاً في هذه البقعة من حيث الصناعة، والتجارة، والعلوم، والآداب، والفنون التي يرعاها عدد عديد من الخلفاء، ولاسيما (المأمون) الذي يمثل العصر الذهبي في أرض ما بين النهرين، فقد أسس الكليات والجامعات، ومنحها ما تحتاج إليه، وشجع العلوم والقضايا الفكرية العويصة بحماسة ونجاح. وكان فيها من الرجال الماهرين ممن اشتهروا في تلك الحقبة التي عاشوها، حتى أن (الكلبسيديره، أو الساعة المائية – وهي التي ابتكرها الإغريقيون أو الرومانيون في البداية[1] وصدرت عن مصانع روما – كان المقصود بها – كما قرأنا عن ذلك في تواريخ أحد الخلفاء – أن تكون هدية مقبولة من لدن ملك فرنسا.

إن فخامة بلاط بغداد في تلك الأيام فاقت كل ما كان معروفاً آنذاك. وصحيح أن تلك الفخامة كانت من مظاهر التعاسة البربرية، ولكن من اللازم أن نأخذ بنظر الاعتبار عندما نحكم على ذلك، ما كان العصر قد اصطلح على استعماله منها. وفي تاريخ أبي الفداء نجد برنامجاً من برامج الفخفخة في بلاط الخليفة المقتدر عندما استقبل أحد سفراء اليونان، فقد كان عدد الجنود المستقبلين مائة وستين ألفاً، وكان الخليفة نفسه محاطاً بالمقدمين من وزرائه، والمقربين من عبيده، وقد علاه الذهب والجواهر، وهو أشبه بكوكب وسط مجرة من النجوم. ويقابل هذا المنظر منظر آخر مكون من ثمانية آلاف من الخصيان السود والبيض مع ضباط من الجيش أدنى رتبة وقطع حرير موشى بالذهب يبلغ عددها الثمانية والثلاثين ألفاً ازدانت بها جدران القصر، وقد وضعت على شجرة غريبة من الذهب الخالص، طيور تغنى وتحركها ماكنة، وقد غطت الأرض اثنان وعشرون ألف سجادة، كما كان يمخر في دجلة عدد

---

[1] لقد سمعت من يناقش في ذلك ويعزو الفضل في الاكتشاف كل الفضل لبغداد.

منوع من السفن أمام نوافذ القصر، في الوقت الذي كان فيه مائة من الأسود مع مروضيهم يزيدون في روعة ذلك المنظر[1].

وكانت مؤسساتها تزخر بالعديد من المؤلفين، والأطباء، والفلاسفة الذين اختزنت مؤلفاتهم العدد الكبير من الكتب، وكلها مخطوطة، ذلك لأن الطباعة لم تكن قد اكتشفت بعد. ويمكن أن نحكم على كثرتها عندما نذكر أن طبيباً في بغداد قد اعتذر عن قبول دعوة من سلطان (بخارى) لأن كتبه وحدها كان يقتضي لنقلها أربعمائة بعير.

ولابد من أن تكون الأموال أيضاً وفيرة في خزائنها. فقد قيل إن بانيها (المنصور) قد ترك بعد موته حوالي ثلاثين مليون استرليني. وقد انفق ابنه ثلاثة ملايين في رحلة حج واحدة إلى مكة. وقد قرأنا أن وزيراً أسس (مدرسة) بكلفة مائتي ألف قطعة من الذهب، وأوقف عليها في الوقت نفسه سبعة آلاف قطعة سنوياً. فكم كان يا ترى مقدار المحاصيل التي تؤتى بكل هذا المال إلى بغداد؟ أننا نعلم من مستند مالي سجله شخص يدعى (أحمد بن محمد) في خلافة (المأمون) أن الواردات المختلفة التي أخذت عيناً قد بلغت ستة وخمسين مليون استرليني.

وكانت جبايتها في عهد الأتراك أقل من (٣٥٠,٠٠٠) وليس هناك ما يلفت النظر كالمقارنة. فهنا يقع الفرق المحزن بين الفخفخة والفقر. فالأموال الكثيرة التي جاءت بها الأذرع القوية، والأخلاق السمحة التي كان الأوائل يتخلقون بها، سرعان ما آلت إلى الإسراف والتخنث، واليد التي كتب بها (هارون الرشيد) رسالته إلى الإمبراطور (تنيسفورس) ودعاه فيها بـ (الكلب الروماني) كانت قادرة على أن تقوم بالعمل بما يدعم اللهجة المهينة بالقول. أما اللغة المنفوخة التي استعملها من جاء بعده من الخلفاء فلم يكن لها وزن؛ لأنها صدرت عن شخصيات ضعيفة مستمدة من حياتهم الخاوية؛ فقد كانوا في عزلة عن رعاياهم بحجة القدسية الشخصية، يقضون

[1] لقد سمعت من يناقش في ذلك ويعزو الفضل في الاكتشاف كل الفضل لبغداد.

أيامهم مع (الحريم) في الوقت الذي كان فيه فئات من الناس يتصارعون في المدينة خارج جدران القصر مع الخونة، ومع الثورات في الأقاليم البعيدة. وبذلك قضى السلجوقيون على سلطة الخلفاء، ومهدوا الطريق لمجيء القبائل التاتارية بقيادة (هولاكو) بعد ذلك بقليل، وأدى انتصاره إلى انقراض الخلافة في سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٧ ميلادية). وقد جيء بالمستعصم، آخر السلسلة الطويلة من العباسيين — وقد حجب وجهه عن نظر رعاياه بحجاب — وطيف به — وهو موثوق بجلد — في شوارع المدينة، يجره حصان عدوه. وأصبحت المدينة بعد ذلك طعمة لمختلف الاتجاهات حتى فتحها (تيمورلنك) مرتين في سنتي ٧٩٥ و ٨٠٣ هجرية (١٣٩٢-١٤٠٠ ميلادية). وقد كف عنها في كلتا المرتين للسلطان أحمد الذي أجلاه عنها مرة أخرى ابن تيمورلنك (ميران شاه). ثم استولت عليها تلك القبائل المعروفة باسم: (آق قويونلو)- أو الأبيض والأسود من الماشية — حتى سنة ٩١٤ هجرية (١٥٠٥م) عندما فتحها العاهل الفارسي الشاه اسماعيل الصوفي.

ولكن موقعاً بالغ الشهرة كهذه المدينة لا يمكن أن يظل مرتاح البال، لذلك نجد الفرس والأتراك يتصارعون سوية عليها في حروب دامية على طراز تلك الأيام. وفي الأخير استولى عليها السلطان التركي سليمان الأول في سنة ٩٤١ هجرية (١٥٣٤م) من يد الفرس، ولكن هؤلاء عادوا فاستولوا عليها في أيام الشاه عباس الكبير، وظلت تحت حكمهم حتى حاصرها (مراد الرابع) بنفسه واستولى عليها في سنة ١٦٣٨ وظل الأتراك قابضين على بغداد منذ ذلك الوقت، وإن كان (نادر شاه) قد حاول في بداية القسم الأول من هذا القرن أن يستولي عليها، وكذلك الأمير محمد علي ميرزا صاحب (كرمنشاه) ولذلك فليس بمستغرب بعد كل هذا أن نجدها هيكلاً عظمياً للمدينة التي كانت، ولاسيما إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن الفساد الداخلي قد ساعد فعلاً على تدمير جثتها. وعلى الرغم من أن عظامها قد ابيضت فلا يزال هناك في الخارج، عقبان تحوم حولها بحذر.

إن الباحثين المعقبين يجدون في الصفحات التي كتبها كل من (نايبوهر) د (بكنجهام) و (فريزر) وصفاً كافياً لأحوالها من الناحيتين السياسية والاجتماعية في القرنين الماضي والحالي. ولذلك فسوف اقتصر في حديثي عنها على كونها لا تحمل إلا القليل من الشبه القريب من تلك الصورة التي صوروها بها. فإن هناك تدهوراً عاماً لا شك فيه أصاب المدينة نفسها، كما هو الحال في سائر المناطق الأخرى من العراق الذي هي عاصمته.

وهي لا تزال تسمى (دار السلام) كما كان اسمها في الماضي. ويسميها بعضهم (مدينة الخلفاء) فضلا عن اسمها (بغداد) وهناك الكثير من الحكايات التي تروق عن أصل هذه التسمية. وقد روى في كتاب (تاريخي بغداد) وغيره من كتب اليوم ما لا أريد أن أدونه، ولكننا نفهم منها أن ذلك الجانب من المدينة الواقع إلى الغرب من دجلة يعرف اليوم باسم (الكرخ) وهو اسم يعني (المرتاد اللطيف)، وأن الجانب المسمى بالرصافة هو امتداد طويل في ضواحي المدينة حتى (كلواذا) يوازي (كرارة) الحالي. وفي أيام ازدهار المدينة على عهود الخلفاء، كانت ضواحي المدينة وبساتينها إلى مسافة أميال ترتوي من مياه (النهروان). وهو انجاز تم أصلاً في عهود التاريخ القديم، ولكنه أعيد إلى الحياة مرة أخرى في أيام نشاط الخلفاء الأوائل.

وقد قدمت وصفاً شاملاً لهذه القناة العظيمة في أطروحة سابقة توجد الآن في مضابط (الجمعية الجغرافية) في بومباي.

إن المنطقة التي تضمها بغداد الآن تبلغ (٧٣٧) (يكر) وعلى أفضل الوجوه يمكن مشاهدة استقامات جدرانها بالرجوع إلى الخارطة، فهي شديدة الإعوجاج ويبدو أنها شيدت من دون تخطيط منسق، بل كان البناء يجري حول مختلف المباني على حالتها إذ ذاك. ولم اسطع أن أعين الدور الذي بنيت في أثنائه. ولكن حيث أن الخلفاء الأوائل كانوا أقوياء، فإن في وسعنا التخمين بأن المدينة لم تكن تخشى الغزو الخارجي في الوقت الذي كان فيه عاهلوها يسيطرون على ما بين السند وجبل طارق.

لقد أفلت عظمة اليونان وتدهورت روما فكانت أبعد وأضعف من أن تصبح خطراً على أولئك الذين دكوا الممالك، والذين كانت حدودهم لا تزال متماسكة، إما لغرض نشر الدين وإما لمعاقبة الكفار. وكانت جحافل الجيوش العظيمة التي تدين بالطاعة لخليفة (بغداد) في جميع الاتجاهات سنداً ضامناً لـ (مدينة السلام)[١] وعلى ذلك ففي وسعنا التخمين بأن بغداد – مهما كان نوع دفاعها الداخلي قد ظلت لمدة طويلة من دون سور تجاه سكان مشاغبين[٢].

وحيث أن نشق الفتوح قد انتهت، فقد ساد الانشقاق بين الزعماء الذين نصبوا أنفسهم منازعين للسلطة الحاكمة، ولاسيما عندما لم يكن الخلفاء هم الحاكمين بأنفسهم، بل انصرفوا إلى الكسل وملذات التخنث، فاعوزتهم الحمية لردع المنشقين في الداخل والخارج.

ونجد في إحدى الكتابات العربية البديعة البارزة على الجدار اللولبي لباب (الطلسم) أن جانباً في الأقل من ذلك البناء قد شيد في سنة ٦١٨ هجرية، أي في بداية القرن العاشر الميلادي في زمن الخليفة (أبي العباس الناصر الدين[٣])، وهو أنموذج بديع للغش الشرقي للبناء بالطابوق، وإذا ما نحينا جانباً تلك الثقوب التي أحدثتها المدفعية في أثناء إحدى الحصارات، فإنه يبدو من الطراوة كأنه بنى حديثاً.

وفي أغلب الاحتمالات فإن تشييده قد تم بعد بناء كثير من أجزاء اسس السور، لأنها تحمل طابع التقادم، وفوق ذلك تبين بجلاء الطريقة المفتوحة للبناء بالطابوق التي تميزت بها (المسناة)[٤]. وعلى ذلك فمن الممكن القول بأن أسس سور بغداد تعود إلى القرن الثالث الهجري في الوقت الذي تلقت المدينة فيه النذر الأولى من الأخطار

---

[١] كان سكان هذه المدينة قد جاء بهم المهدي ابن المنصور وخلفه.

[٢] ترك المعتصم بالله الخليفة الثامن مدينة بغداد إلى سامراء وجعلها عاصمة له وسكنها هو وبضعة ممن خلفوه بسبب شغب السكان.

[٣] الصحيح (الناصر لدين الله) الناقل.

[٤] وهي التسمية التي أطلقت على السدود التي تبنى لغرض الدفاع المائي حيث تقام فوقها التحصينات.

الخارجية لأول مرة. ويبدو التهدم واضحاً على درجة البناء؛ لأننا نجد الترميمات بكل أشكالها، على مر القرون، حتى على السدود المبنية تلطيشاً بصورة عاجلة لمنع التهريب من قبل السلطات التي كانت من الفقر بحيث لا تستطيع أن تجد بديلاً قوياً أفضل من ذلك.

وللسور عشرة أبراج مدورة نصف مخبأة في السور الخارجي[1] بشكل نصف هلالي، مبنية بالآجر، تشكل كوى على بعض منها بضع مدافع يتبين عددها من الإشارات التي وضعت على الخارطة[2]. وبعض هذه المدافع من النوع الكبير، طويلة وثقيلة وتعد نماذج بديعة من النحاس والنحاس الأصفر، من تلك المدافع المزوقة التي تعود للعهود المزدهرة من أيام الإمبراطورية العثمانية، وقد رمي قسم منها في مدينة بغداد التي لا تستطيع الآن أن تتبجح بوجود مسبك يستطيع أن يحيلها إلى مدافع صغيرة. وأكثر قطعها أصبحت كخلايا النحل، تدل الثقوب الكبيرة فيها على أنها استعملت كثيراً في أيامها، ولا يخشى المرء إلا القليل من خطرها الآن، وهي مشلولة في عرباتها. بل ظل بعضها مطروحاً على الأرصفة بلا عربات. وهناك من يقول بتحويلها إلى نقود نحاسية، ولكن الصعوبة في كيفية تكسيرها لا مكان صنع النقود منها. أما إزاحتها فعلاً بأيد ووسائل بغدادية فيبدو أنه خارج عن حدود الإمكان ويقول البعض إن تاريخ صنعها يعود إلى قرنين سابقين.

أما السور نفسه فإنه يقف على خندق يبلغ عمقه في الأصل قرابة (١٨) قدماً بالنسبة لعلو السهل الذي يقع وراءه. وتحيط بالخندق جسور قوية من الخارج على فواصل غير منتظمة. وفي ما بين الأبراج المدورة توجد أنصاف حصون بأبعاد غير متساوية لكي تقوي جدار السور الداخلي (Revitenment) ولكي تحميه بإطلاق

---

[1] نجد في كتاب (نشأة القلوب) لعبد الله المصطافي، أن سوراً مبنياً بالكلس والطابوق المحروق، يحيط به خندق، قد انشأه المستظهر بالله الخليفة الثامن عشر سنة ٣٠٠ للهجرة (٩١٣م).

[2] كهذه العلامة ١/١ ١/١ ١/١.

النار الجانبية التي وضعت لها- كما هو الحال بالنسبة للسور نفسه – خروق تمر منها نيران المدافع.

والسور من الداخل مكشوف لمسافة (١٣) قدماً فقط. أما القسم الباقي منه فقد أخفى تحت متراس كثيف من التراب، يقويه من جهة، ويحمي البناء من فيضانات النهر التي تملأ السور وتضغط بشدة على الاستحكامات.

والسور يعطي بعض الوقاية للذين يدافعون عنه، بالتقويس البسيط الذي يشابه غرف التحصين المدفعي الصامدة. وفوقه سلك للمارة ببعض أقدام قليلة. وأصبح أعلى السور الآن مزوداً بالشرفات المفرجة.

وقد كانت أربعة أبواب مع جسورها الصلبة (هي الآن محتاجة إلى الترميم بشكل حاد) فوق الخندق، تؤدي إلى السهل الخارجي.

أما الآن فالمفتوح منها ثلاث فقط هي: (باب المعظم)[١] ،وهي الباب الشمالية. و(الباب الشرقي) وهي الباب الشرقية، و(الباب الوسطاني) وهي الباب الوسطى. أما باب (الطلسم) التي سبق ذكرها فقد أغلقت حسب التقاليد لأن السلطان (مراد الرابع) قد خرج منها إلى القسطنطينية بعد أن استولى على المدينة من يد الفرس.

إن محيط الاستحكامات الشرقية . وبضمنها سطح النهر . هو عشرة آلاف وستمائة ياردة. أما الغربية فهي خمسة آلاف وثمانمائة ياردة، فيكون مجموعها ستة عشر ألف وأربعمائة ياردة، وهو امتداد من المباني الآجرية يساوي تسعة أميال وفرسخين وربع الفرسخ حسب القياس الإنكليزي[٢].

---

[١] سميت كذلك لأنها كانت تواجه قرية (المعظم) وهي مرقد الفقيه السني المشهور الإمام الأعظم.

[٢] إذا كانت القامة تعد مساوية للفاتوم الإنكليزي (وهو مقياس لسير المياه قدره ستة أقدام فإنه يزيد على الطول الحقيقي بثلاثة أرباع العدد. فهو أما أن يكون مبالغة فاحشة من جانب "حمد الله مصطفى" أدانه

والمدينة بحالتها هذه لا تقدم إلا القليل من المعوقات أمام قوة حسنة التنظيم، لأن من الممكن إحداث فجوة في أي مكان عن طريق إطلاق المدافع بضع دقائق. والقوة العددية للحاميات والسكان المحاربين من الضآلة بحيث أنها لا تستطيع تغطية مواقع الدفاع إذا ما كانت مهددة من أكثر من نقطة واحدة، أما من جهة النهر فإن المدينة مفتوحة تماماً، وبعدد قليل من البواخر أو سفن المدفعية الصغيرة المنتشرة على (الشرائع) أو أماكن الإنزال، فإن قوة إنزال صغيرة تستطيع احتلال الموقع، إما عن طريق النوافذ أو الشرفات، أو عن طريق زحف المشاة في الشوارع المفتوحة. والقلعة شأنها شأن المدينة من حيث الدفاع.

أما الترتيب الداخلي للمدينة، فخير وسيلة للإطلاع عليه، وعلى أهم المباني البارزة فيه، هو الرجوع إلى الشروح الملحقة بالخارطة. ولا تعني الأسواق سوى أماكن تجمع الرجال والبضائع كما هو الحال في أغلب المدن الشرقية وقد وصفها الكثيرون من الرحالين في مختلف الأوقات عندما كانت في أوقاتها المزدهرة. والشوارع هي تلك الشوارع نفسها الضيقة المزدحمة ذات الشكل المتلاصق التي نراها في المدن الآسيوية. وإذا ما تجولنا خلالها فلن نجد سوى الجدران المبنية بالآجر باستثناء بعض الجوامع والأضرحة[1] وما يجاورها من الشرفات، وقد أغلقت كلياً أو جزئياً لكي تحول دون تطلع العيون الفضولية الزائد، على أن دواخل الكثير من البيوت القديمة تبهج الزائر لأنها مزخرفة بالزجاج بشكل جميل. وفي أغلب الأحيان تكون جدرانها مزوقة بنماذج من الفن العربي بآيات من القرآن، أو بمقاطع شعرية لشعراء مفضلين بالخطين العربي والفارسي فضلا عن أنها مزودة من الداخل بما يلزم من أدوات

خطأ ارتكبه باعتبار (القامة) ذراعاً (وهو وحدة قياسية تساوي ١٧ أو ١٨ عقدة) وهذا القياس الأخير يستعمل بصورة عامة من جانب الشرقيين ويكاد يطابق الاستعمالات الحديثة.

[1] وهي مقدسة غاية التقديس من جانب الطوائف الإسلامية. وترتكز عليها أهمية البلاد السياسية على العموم وعلى الأضرحة الأخرى المماثلة في الأماكن القريبة من العاصمة.

وأذكر على سبيل المثال (الكاظمين) و (سامراء) و (كربلاء) وهي المدن التي ما تزال وستظل تجتذب الشعور الديني المتحمس لدى أفراد الشعب.

لأوقات الشتاء،على حين أن (السراديب) تصبح مساكن غريبة تحت الأرض، وهي ضرورية بالنسبة للجو، كما هي ملقنة لنظر الغرباء عن هذه المناطق.

أما الصور التسع التي تصور بغداد، فقد تفضل الدكتور (هايسلوب) بتزويدي بها، وقد التقطها بنفسه. وهي صور صادقة وإن كانت تبدو في بعض الأحيان غير واضحة؛ وذلك بسبب من فساد مادة الكولوديرل وبعض هذه الصور أنماط بديعة حقاً وتسبغ على بغداد الطابع الذي يطغي علينا عندما نتصور مدينة شرقية، فضلا عن (الأضرحة) الكثيرة داخل المدينة.

محلة سوق الغزل

جامع سوق الغزل – أقدم جامع في المدينة. بني بأمر الخليفة المستنصر بالله في السنة ٦٣٣ هجرية. ولم يبق منه الآن إلا المنارة.

سوق الغزل.

عقد الجيلاديين– العقد تعبير يعني مجموعة من البيوت بين شارعين.

عقد الحفرجية.

عقد الشيشرجية.

عقد الكنيسة.

عقد المزرقجي.

عقد الكلخانه.

عقد التنانير.

عقد دكة صمور.

قهوة الآغا.

عقد قهوة المخضر.

محلة رأس القرية

عقد السقاقي.

عقد الخاصكي.

جامع الخاصكي- يقال إن هذا الجامع بني على كنيسة في سنة ١٠٩٤.

عقد الكاوور.

العقد الكصيف.

عقد الرواق.

عقد حاجي أمين.

عقد حمام حيدر.

عقد الجنابيين.

عقد العمار.

عقد تكية البدوي.

العقد الضيق.

عقد أبي يعقوب.

محلة سيد سلطان علي

جامع سيد سلطان علي: أعاد بناءه إبراهيم باشا في سنة ١٠٩٣ ،ولكن الضريح كان موجوداً قبل ذلك التاريخ.

عقد الجاموس.

تكية مرزه علي

عقد سيد سلطان علي

عقد سبع أبكار.

قهوة المسجد.

جامع حاجي نعمان.

بقجه لي قهوة.

عقد العجيليين.

عقد القاطرخانه.

قهوة دياب.

قهوة أم النخلة.

عقد الحطابة.

عقد سميكة.

عقد كرموش دزكين.

عقد الكاوور.

عقد العطاطير.

محلة قنبر علي

جامع قنبر علي

قهوة إسماعيل الكهية.

قهوة الوقف.

قهوة تختة بند.

حمام قنبر علي.

عقد الباب الصغير.

عقد مسجد عبد الغني.

عقد الحمام.

عقد سيد عبد الله.

عقد التكية.

عقد فراشة.

العقد الضيق.

عقد اليهود.

عقد النجاجير.

عقد الخبابيز.

عقد القوللغ.

جامع الرحبانية – الجامع الذي بناه مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن السلطان الايلخاني في سنة ٧٥٨ هجرية (١٣٥٦-٥٧م).

خان المرجانية – أن هذا الخان كما يدل عليه اسمه بالتركية ذو سقف معقود وهو من أمثلة البناء الشرقي القديم، ويقال إنه كان كنيسة قديمة ولكني أشك في ذلك وأعتقد بأنه ملحق لجامع المرجانية في الأصل، ومن جملة الموقوفات على بناء الجامع ويحمل تاريخ السنة ٧٥٩ الهجرية.

قهوة الأورطمه.

محلة الحيدر خانة

عقد الحيدر خانه.

عقد الجامع – وهو جامع الحيدرخانه بناه داود باشا في سنة ١٢٤٣هـ.

عقد شفتالي.

عقد الخشالات.

عقد ايميش.

قهوة البزارة.

قهوة حسن.

قهوة كمبته لى.

جامع أحمد الكهيا- وهو جامع بني في سنة ١٢١١هـ وله قبة نفيسة فسيفسائية وقد أوقفت عليه جميع إيجارات سوق الميدان.

محلة حسين باشا

جامع حسين باشا – وهو الآن جامع متهدم، وقد كتب عليه أنه بني في سنة ٧٢٨هـ.

عقد الجامع.

عقد مظفر آغا.

عقد الباب الصغيرة.

عقد حجي خليل.

عقد سروان باشى.

عقد الجيب هجي.

محلة الفضل

عقد رابات

عقد خان لاوند

عقد الشبانة

حمام عيفان

قهوة التخته بند – (صاحبها أبو عصفور).

جامع الفضل – وهو جامع بني في سنة ١١٩٧ هـ وقد بناه سليمان باشا وبالغ في تشييده.

وإلى الشمال الشرقي من هذه الناحية وقرب الباب الوسطاني يقع ضريح الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي (سيف الله المسلول)، وقد بني في سنة ٦٢٢ هجرية (١٢٢٥م).

قهوة أحمد أفندي.

قهوة الوقف.

عقد الجامع.

عقد الجبقجي.

قهوة الشبانة.

محلة باب الآغا

جامع باب الآغا.

عقد الدشتي.

قهوة صغيرة.

عقد باب الآغا.

عقد العلوية.

قهوة بروازي.

سوق الحدادين.

العقد الضيق.

سوق الاسكجية.

حمام بنجه علي.

عقد الصفافير.

سوق باب الآغا.

عقد المنارة المقطوعة.

محلة العاقولية

عقد العاقولية – في هذه المحلة جامع يسمى جامع العاقولية يعود تاريخه لسنة ١٠٩٥هـ.

عقد زراق حسين.

عقد الطاق.

عقد محمود اسطه.

عقد الصخر.

عقد الربيعي.

عقد ابي دابس.

حمام الكجه جيه.

قهوة الكجه جيه.

محلة جامع خضر بك

عقد كمش حلقه – وفيه جامع خضر بك وقد بنى في سنة ١١٣٣هـ وأوقفت عليه بعض الأراضي في الحلة.

عقد إمام طه.

عقد علي أفندي.

عقد باب الجامع.

عقد أبي دراح.

عقد الحمصجي.

العقد الضيق.

جامع العادلية.

خان العادلية.

قهوة جديدة.

قهوة المحكمة.

حمام القاضي.

خان التمر.

قهوة خان التمر.

خان الدفتردار.

خان المصبغة.

خان الكمرك.

حمام الكمرك.

قهوة كافل حسين.

قهوة الكمرك.

سوق الصياغ- وهو سوق صاغة الذهب والفضة.

سوق الهرج.

سوق المولة خانه – وفيه سوق وجامع بناهما داود باشا في سنة ١٢٤٢ه وأوقف هذا السوق على الجامع.

محلة الصفافير

عقد القايمقام.

قهوة حاجي خضر آغا.

عقد السكة خانة.

قهوة السكة خانة.

قهوة القزازين.

خان قبجي كهيه سي.

خان الصفار.

خان المعظماوي.

عقد القبلانية.

خان يعقوب.

جامع القبلانية – وقد بنى هذا الجامع في سنة ١١٣ه (١٧٢١م) وقد أوقف عليه سوق الهرج.

قهوة الصفافير.

جامع الوزير – بني في سنة ١٠٠٨ هجرية (١٥٩٩م).

الجسر والقشلة – وتقع إلى جنوبيهما بقايا الكلية الذائعة الصيت التي بناها الخليفة المستنصر بالله في سنة ٦٣٠ه (١٢٣٢م) وعليها خطوط بديعة.

القشلة – ومعها المستشفيات.

السراي – وهي المباني الحكومية.

الحرم – وهي الجناح النسائي.

محلة باب المعظم

جامع الباشا – داخو جامع بناه حسين باشا في سنة ١١٣٢ه (١٧٢٩م).

جامع الأزبكيه.

عقد الطوب.

عقد قصاب باشى.

قهوة قصاب باشى.

عقد قمر الدين.

عقد دلي عباس.

عقد قهوة المجاريه.

قهوة سعدي.

قهوة الوقف.

قهوة السقة خانه.

حلة الميدان

قهوة المصلى.

باب القلعة.

جامع القلعة.

قهوة السقافي.

عقد البقجه.

عقد الشريعة.

عقد نجم الدين.

عقد المدرسة.

عقد انبار.

عقد كنج آغا.

خان حسن بك.

خان أحمد كهية.

قهوة الوقف.

سوق أحمد كهيه.

قهوة الخان.

محلة البلنجية

سوق البلنجيه

قهوة البلنجيه

عقد باباكركر

عقد الروزنامجي.

عقد عبد الله باشا.

عقد شاهين.

قهوة التخته بند.

قهوة آجق باشا.

حمام الباشا.

سوق الحمام.

محلة ايلان ديلي

جامع أحمد أفندي.

عقد الشابندر.

عقد الساقية.

جامع علي أفندي.

عقد جامع علي أفندي.

عقد الكرد.

عقد الطاق.

عقد تبه الكرد.

قهوة ايلي وللي.

محلة المرادية

جامع مراد باشا – وقد بناه مراد باشا في سنة ٨٧٠هجرية (١٤٦٥م) وأوقفت عليه وقفيات كثيرة منها قناة بلدروز في ديالى.

عقد المرادية.

عقد مير البحر.

عقد الطاطران.

عقد دكان ضاحي.

عقد بيرداود.

محلة الطوبجية

جامع الخاتون.

عقد الباشا.

عقد فيض الله كهيه.

عقد قهوة دودي.

عقد الطوبجية

محلة القراغول

عقد افترجير

عقد القراغول

عقد مهدي آغا

عقد الباجه جي

عقد زند.

محلة كوك نظر

عقد الصابونجية

عقد الكل هجيه

عقد راس الكنيسة

قهوة رونجي

عقد تبة الكاوور

عقد فليح عبد الله

عقد شيخ محمد

عقد مسجد حاج علي

محلة دكان شناوة

قهوة المختار

عقد السراريح

عقد حاج علي

عقد السبيلخانة

جامع الخانم

عقد الخانم

عقد رسول آغا

عقد حمادى

عقد جوخدار آغا

محلة كنج عثمان

عقد الحرم

عقد المدرسة

عقد سوري قهوة

عقد النعمانية

عقد كنج عثمان

عقد الاخور

سوق كنج عثمان

مدرسة علي باشا

جامع الاصفية

عقد الدنكجيه

عقد سماكه

عقد العادلية الصغيرة

عقد شعبان بك

عقد البارودجي

خان الدنكجية

جامع العدلية

قهوة الدنكجية

محلة المهدية

جامع المهدية

قهوة المهدية

عقد شيخ نصر

عقد أبي عامر

عقد شبه

عقد تيره

عقد الدوريين

محلة عباس أفندي

قهوة عباس أفندي

قهوة شيخ محمود

قهوة ابن بشبش

قهوة سالم

قهوة خضير

قهوة أبيا علي

عقد ايكنجي

عقد إبراهيم بك

عقد طاق سلطان بك

عقد ديوان أفندي

عقد شيخ محمود بشيرلي

عقد وشوش

عقد خليل آغا

محلة قاضي الحاجات

عقد كشيش

عقد سيد فرج الله

قهوة قاضي الحاجات

قهوة خان عدين

قهوة خان الدخن

قهوة خان الميره

عقد العلاوي

عقد الفتاتيل

عقد اليهود

محلة الطاطران

عقد الطابوقجية

عقد النقاقيب

عقد حسين وتار

قهوة الوتار

عقد بني سعيد

قهوة قرط

عقد الحياج

عقد باس

عقد شمي

عقد شيخ سراج الدين

سوق شيخ سراج الدين

عقد الاباريقي

عقد صدري

عقد التكمه جي

عقد السبيلخانة

عقد طاق العيونية

عقد أهل برشت

عقد الحياج

عقد حبيب

محلة الهيتاويين

عقد القشلة

عقد نيبار

عقد خان الششترلي

عقد سبتي

عقد البرغانجي

عقد الصندوقجية

عقد شيخ إبراهيم القدسي

عقد الدكمجية

عقد التنكجية

قهوة الهيتاويين

سوق الهيتاويين

سوق الهيتاويين

عقد الدوكجية

عقد السويدان

حمام السيد

عقد الكلخانه

عقد التخته بند.

محلة الفراشة

عقد منارة المكطوم

عقد قره اصلان

عقد النقاقيش

عقد علوة الخيار

عقد سوق الشورجة

قهوة البزارة

عقد كواس

حمام الشورجة

عقد الحداد

عقد العين هجي

سوق البغال

سوق التمارة

محلة الشيخ

جامع الشيخ- مسجد ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني الشهير وقد دفن فيه حوالي سنة ٦٥٠هـ (١٥٥٢م) ويزوره الكثير من المريدين المسلمين من جميع أرجاء العالم الإسلامي، ويجري الماء إليه بوساطة قناة كافية من ماء النهر. وتقوم فوق الضريح قبة فاخرة بنيت في سنة ٨٤٠ هجرية.

عقد الأغوات

عقد الشيخ ألف

عقد القصابخانة

قهوة سلمان

عقد المزمبلة

عقد فسلان

عقد قهوة أم النخلة

عقد شيخ رفيع

عقد المطبخ

عقد المنزلاوي

عقد فضوة عرب

قهوة فضوة عرب

عقد الخندق

عقد تكية القنديلجي

عقد تكية البكري

عقد التسابيل

عقد الساقية

عقد الطاق – وهناك مسجد في هذه الناحية يسمى جامع النعماني بني في سنة ٧٨٠هـ (١٣٢٩م).

عقد قهوة شكر

عقد الفناهرة

قهوة الفناهرة

عقد القزازة

عقد العبايجية

عقد المعمار

جامع القزازة.

محلة السنك

جامع عبد الفتاح

عقد الطاق الأظلم

عقد شطبه

حمام الراعي

عقد السادة

عقد القصاصير

عقد الدباغخانه

عقد الباب الشرقي

عقد السريعة

محلة جميلة

عقد الشيخ الخلاني

عقد زهري

عقد اندروس

عقد الفوسجي

عقد الرهليين

جامع النعماني

عقد المجدية

عقد البهادرية

عقد شيخ بهاء الدين

قهوة أبي علي

محلة بنات الحسن

جامع بنات الحسن

عقد الوزي

عقد الكولية

عقد طاق صفر

عقد كاتب الدبية

عقد راس العمار

عقد البصاصيم

محلة العوينة

جامع حاج فتحي

عقد البردونيين

عقد ريس العيونية

عقد الجناين

عقد العيونية

دعقد عقيل

قهوة سليم

قهوة باب الجامع

عقد دكان سيد ملا حسين

محلة الدهانة

قهوة حسين الكردي

عقد قهوة علي خان

قهوة الدهانة

عقد الدسامبل

عقد النجار

عقد قهوة مفانيس

عقد عمران آغا

عقد فانوس

محلة صبابيغ الآل

عقد صبابيغ الآل

قهوة صبابيغ الآل

عقد كشاب

عقد البرغانجي

عقد النصارى

قهوة الصندوقجي

عقد الصندوقجية

عقد السوبجية

عقد شبارة

العقد الضيق

محلة المربعة

عقد الشريعة

قهوة المربعة

عقد حرموش

عقد الفتال

عقد دكان حبوب

قهوة جوب

عقد ضريب

عقد الشالجية

عقد شفتالي

محلة شاه قولي

جامع حسن بابا

عقد باب السراي

عقد كلخانة

عقد صاري كهيه

عقد قليج اصلان

عقد السراريح

عقد المسطاقجية

عقد الاتمكخانة

عقد المطبخ

محلة دلال

عقد الصخر

عقد صالح بك

عقد المتولي

عقد رسول آغا

عقد كوموش دزكين

عقد العلمدار

عقد خرطوم الفيل

قهوة خرطوم الفيل

محلة جامع المالح

جامع المالح

حمام المالح

قهوة المالح

عقد القوشجية

عقد صالح آغا

عقد الدوريين

عقد أبي خشيم

عقد شيخ إبراهيم بن نصر الدين

عقد الفرنجي

عقد الكلخانة

عقد سمير

محلة المفرج

قهوة أبي غزال

قهوة مبارك

قهوة المفرج

عقد أبي شبل

عقد أحمد حسين

عقد التعلوانة

عقد قرة شعبان

عقد الطونجية

قد التككجية.

عقد المسجد

عقد علوش

محلة أبي شبل

عقد أبي شطيح

عقد حنون

عقد اليهود

عقد التوراة

عقد أبي سيفين

قهوة أبي سيفين

قهوة الكورجية

سوق الصرارج

سوق المنطقجية

سوق الخردة فروشية

سوق الجبقجية

قهوة الجبقجية

خان التتن

سوق التتنجية

سوق التحميس

قهوة زنبور

سوق الطويل

خان الرماح

سوق البرغانجية

سوق السوخجية

سوق الصباغين

قهوة ملوكي

جامع الصباغين

خان الباجه جي

سوق الزنجيل

قهوة السختيانجية

سوق الخفافين

سوق اليمنجية

قهوة حاج وهب

سوق الكببجية

قهوة سلطان حموده

خان العفص

سوق اليهود

سوق الجايف

سوق القزازين

خان الذهب

خان البريسم

سوق الطغمة

قهوة الطغمة

سوق القز

سوق البزازين

سوق التتكيجية

خان الزرور

سوق الخياطين

سوق القيصرية

قهوة القيصرية

خان المعاملة جيه

سوق الغريب

سوق القوللغ

خان بكر

سوق الدساميل

خان مخزوم

سوق الاسكجية

خان ايللي يكي

قهوة القوللغ

خان سلطان حمودة

سوق العريضه

خان جني مراد

خان اليهود

خان الحياج

خان أحمد آغا

سوق السريرجية

خان اندريه

خان جامع محمد بقال

قهوة الوقف

سوق رأس القرية

قهوة السقاقي

خان الجص

قهوة حاج أمين

جامع حاج أمين

القسم الغربي من المدينة:

١- البنايات العامة وفئات البيوت داخلها.

جامع الشيخ صندل – وهو جامع بني في سنة ١١١٨ هجرية (١٧٠٨م) وأوقفت عليه الدكاكين المحيطة به.

٢- جامع خضر الياس.

٣- جامع القيصرية- وقد بني في سنة ١٠٢٠ هجرية (١٦١١م)، وأوقفت عليه إيجارات بعض الدكاكين.

٤- تكية باب الكاظم – وهي تكية البكتاشية الدراويش، وعليه بعض الكتابات الكوفية النفيسة المطموسة، من تاريخه غير مضبوط، ولكنه حوالي سنة ٣٣٣ هجرية (٩٤٤م).

٥- جامع شيخ موسى- وقد بني سنة ١٢٢٨ هجرية (١٨١٣م) وأوقفت عليه بعض البساتين ومعامل الطابوق فضلا عن بعض الآبار والمزارع.

٦- الوقفة.

٧- محلة الجعيفر.

٨- محلة وهاش.

٩- سوق حمادة.

١٠- سوق خضر الياس التكارتة.

١١- سوق الحجاج.

١٢- سوق الدهدوانة.

١٣- سوق الجديد.

١٤- سوق شيخ صندل.

١٥- سوق العجمي.

١٦- الفلاحات.

١٧- سوق المشاهدة.
١٨- سوق العلوة.
١٩- محلة الكريمات.
٢٠- محلة رأس الجسر.
٢١- محلة الشواكة.
٢٢- منصور الحلاج.
٢٣- الشيخ معروف – وفيه ضريح معروف الكرخي وقد شيد سنة ٦١٢ هجرية (١٢١٥م)، وأوقفت عليه أجزاء من قناة الدجيل.
٢٤- الست زبيدة – وفيه ضريح السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد (٢١٢هجرية – ٨٢٧ميلادية) شيده عبد الله المأمون، وقد أجريت فيه إصلاحات حديثة.
٢٥- الشيخ داود.

جامع الحنان – بني سنة ١١٠٨هـ - ١٦٩٦م.

جامع ابن عطا- بني سنة ١٢٢٣هـ (١٨٠٨م).

جامع الست نفيسة- بني سنة ١١١٣ هجرية (١٧٠٦ ميلادية).

مسجد علاوي الحلة.

مسجد باب السيف

مسجد رأس الجسر

مسجد البيجات

مسجد سوق العجمي

مسجد سليمان الغنام

مسجد بيت الشواف

مسجد محمود سوزه

مسجد ابن عطا

مسجد حمام الشامي

مسجد محلة الجبور

مسجد سوق حمادة

مسجد حاج أمين

مسجد حاج محمد

مسجد ملا نعمان

مسجد شيخ علي جبوري

مسجد ملا شريف

مسجد ساني (ثاني)

مسجد ملا كاظم

مسجد حاج عبد الله

(والمساجد بيوت صغيرة للعبادة تختلف عن الجوامع لأنها لا تقام فيها صلوات الجمعة).

حمام الشامي

حمام الجسر

حمام اليتيم

عشائر العراق

أضيف إلى ما سبق بيانه في الصورة العامة عن سكان العراق – هذا الوصف الموجز للعوائل البارزة التي وقعت تحت ملاحظتي وأنا أدرس (العراق البابلي).

وأهم ما تنبغي ملاحظته في هذا الصدد هو أن هذه الصورة تختلف عن القبائل البدوية التي أما أن تكون قد استقرت في العراق،وإما تلك التي تغزوه سنوياً،وإما تلك التي تجيء إليه لغض المنازعات العشائرية بالتحكيم حسب اقتضاء الأحوال.

وأهم هذه العناصر هي (شمر جربة) التي تمتد على شمال أرض ما بين النهرين من شمال سنجار، ونهر الخابور، إلى (الصقلاوية) غربي بغداد، وفي بعض الأحيان إلى الحي. وهم يمثلون الرعب بالنسبة إلى السلطات التركية واللأهلين. ويعيشون في البرية والقفار وفي المناطق التي تبدو غير مأهولة، ولا ترغب السلطات في الاستحواذ عليها حيث ينطلقون منها في أعمال غزو ينهبون فيها كل ما تصل إليه أيديهم، حتى يصلوا إلى أبواب المدينة في بعض الأحيان. ولما عجزت السلطات التركية عن صدهم فقد رضيت في الأخير أن تدفع إلى زعيمهم راتباً شهرياً لكي يضمنوا ولاءه، أو بألفاظ أخرى: لكي يأمنوا شر العشيرة. ولم يكن ذلك ليفي بالغرض، فإنه – كما كان (فرحان) شيخ العشيرة يقول (لا يكفي لشراء قهوة الضيوف الذين يفدون إليه في كل ساعة). وعلى ذلك فقد ظل السلام الأجوف الذي وقعت به تلك الاتفاقية يتخلله في بعض الأحيان، أنباء عن أعمال نهب وسلب صغيرة. ولم يكونوا ذوي نفع للحكومة إلا عندما يندلع عصيان تام تقوم به العشائر العربية الصغيرة ويطلب إليهم أن ينقضوا عليها بالسيف والنار، فيسرعون آنذاك لكن يظهروا جدارتهم باستغلال تلك الإجازة، فيهيمنون على البلاد، ولا يفلت منهم عدو أو صديق للسلطة.

وعلى الرغم من أن قليلاً من سفك الدماء يقع في تلك الأحوال، إلا أنهم يتركون وراءهم خراباً شاملاً، وتسرع العشائر إلى إخلاء الطريق لهم، ولا تحين للبدو إلا الفرصة السريعة للنجاة بعوائلهم فقط، تاركين وراءهم الماشية، والخيام، والأثاث، والطعام، فيسوقونها أمامهم لكي تباع بأبخس الأثمان لمن يدفع نقداً. ولما كان النهب هو هدفهم الأول، فإنه لم يكن ليعينهم أن يعرفوا من يكون المالك لأنهم لا يشاطرون السلطة عطفها في هذه الشؤون.

ورئيس هذه القبائل هو فرمان بن صفوك.

والقبائل البدوية الأخرى التي ترتاد العراق بأعداد كبيرة هي عشائر (الظفير) و(عنزة). وعشيرة (الظفير) تقطن على وجه العموم في الصحراء حوالي منطقة (المنتفق) غربي الفرات، وتقوم بغزوات بين كل آونة وأخرى على جنوبي ما بين النهرين وتجتاز نهر دجلة في بعض المرات، وتجبي الأتاوات حتى تصل إلى (بدره) و (مندلي)، وبعضها يغزو ما بين (النجف) والدير غربي الفرات، وفي بعض الأحيان تقتصر غزواتها على أرض ما بين النهرين فقط.

وهم في العادة ذوو تراث مع (شمر جربة) ولا يوغلون في مراعيهم بسهولة إلا إذا كان الأمر مغرياً جداً. وليسوا في الحقيقة من القوة بحيث يضارعونهم.

أما أغلب أعداد عشيرة (عنزة) فإنها موزعة في المسافة التي تفصل العراق عن سورية. وعشائر (الظفير) تساعد (المنتفق) في حروبها مع بعضها بعضا، ومع العوائل العاصية التابعة للعشيرة.

ولابد لي من أن أشير إلى أن هذه القبائل البدوية بصورة عامة، وفي الواقع غيرها من العشائر التي تقطن شمالي الحلة في أرض ما بين النهرين، وفي بغداد شرقي الدجلة، تدين بالمذهب السني،على حين أن تلك التي تقطن خارج هذه التحديدات تدين

بالمذهب الشيعي. وقد ظل هذا الخلاف من بواعث حماية الحكم في العراق، ذلك الحكم الذي لم يكن لضعفه ولطبيعتة الاستبدادية لولا هذا الخلاف.

عشيرة شمر طوكه الممتدة بين نهر ديالى حتى كوت العمارة من الجانب الشرقي لدجلة – إلى النهروان

	عدد الخيام	موطنهم الاعتيادي
الصدعان	٣٠٠	من الكوت إلى المهدي
الدلابحه	٢٠٠	من الدبوني إلى الزلجة
المجابلة	١٥٠	من الزلجة إلى الدوخلة
القفيفان	١٠٠	من الدوخلة إلى الكيثة
الزاكوك	٦٠	من كيثه إلى طي
المناصر	٤٠	الدور
الدلفيه	٤٠	من الدور إلى علج
النفافشه	٧٠	من علج إلى ديالى
الباوية	٤٠	على النهروان
المردان	٤٠	على النهروان

وقد أصاب هذه العشيرة التمزق أخيرا بسبب من النزاعات الداخلية. ويقال إنها كانت فرعاً من عشيرة شمر جربة البدوية، ولكنها بسبب من استقرارها واكتسابها العادات الزراعية فقد فقدت استقلالها ونالها الاحتقار.

وكلمة (طوكه) التي تعني الطوق في العنق هي التي سجلت ذلك التغير؛ لأنها تعني طوق العبودية.

وهم يعدون حوالي مائتي بندقية ويستطيعون تجميع (٧٠٠) فارس، وصيحتهم الحربية (سناعيس) ولديهم الكثير من الماشية.

عشيرة الدوار

الاسم	عدد الخيام	الموطن
بيت دبش	٧٠	زديت الزارة
بيت أبي الحسين	٧٠	دير العاكول
بيت بن خالد		
بيت طهماز	٧٠	سند

وهذه العشيرة وإن كانت تسكن في المنطقة نفسها، فإنها تختلف عن العشيرة السابقة. فإن أفرادها كانوا يعملون كأدلاء وسعاة لدى الحكومة، وبهذا الوصف لم يكونوا يدفعون أتاوات، ولكن سمح لهم أن يجبوا من القوارب التي تمر منهم (حلافة) واحدة عن كل قارب وخمس (شاميات). وثلاثة أرطال من القهوة. وهم يجتازون الدجلة إلى جانبه الغربي عندما يكونون في حالة نزاع مع (شمر طوكه) ويستقرون قريباً من (شرش) و(الشظايف) ويعدّون من الرماة المهرة ويعدون (٣٠٠) بندقية ويجمعون (٣٠٠) فارس في حالة الاشتباك.

عشائر كوت العمارة

االاسم	عدد الخيام	الموطن
كوت العمارة	١٠٠	كوت العمارة

سكنت هذه العشيرة الصغيرة على الدوام في بقعة واحدة على ضفتي نهر الدجلة حوالي الحي.

ولديهم حوالي (٦٠) بندقية وقليل من الماشية ولكن تعوزهم الجمال والخيول، شأنهم في ذلك شأن قبائل الدور، ومهنتهم الرئيسة هي الدلالة، ولذلك فليس لديهم إلا الضئيل من الحنطة والشعير وزوج من الخيول البائسة تعطيها الحكومة لهم سنوياً، وقد سمح لهم بجباية ما يجبيه عشائر الدور وقد كان لهم في الماضي شأن ولكن الباشوات المتعاقبين قللوا من مخصصاتهم. وهم في العادة هادئون ونافعون وتعرفهم أغلب القبائل معرفة تامة. وقد وظفت شيخهم لديّ سنوات عدة كوكيل لتزويد الباخرة بالوقود، وعمل لدى كدليل في رحلاتي، وهو يعرف الكثير عن البلاد، وكان هو وعشيرته ينفعونني في الشؤون المحلية الصغيرة، وهم من الطائفة الشيعية.

عشائر زبيد

الاسم	عدد الخيام	
المعامرة	١٠٠	من البغدادية إلى المحاويل والمسيب
آل مراد	٢٠٠	من البغدادية إلى المحاويل والمسيب
البوعاطف	١٠٠	من عبد الله إلى البغدادية والنيل
الدويجات	١٠٠	من برنجي إلى حمانيه
الجحيش	١٥٠	شرهان
الدليم	١٥٠	الوج
الجلابيين	٢٠٠	من المصلحيات إلى البغيله
البو سلطان	٢٠٠	من الشوملي إلى الفرات
القراغول	١٠٠	من الشوملي إلى الفرات
البوعجه	١٠٠	عنادل العراق
السيد	٢٠٠	من الحورية إلى عفج
الشماطة	١٠٠	حاشية الشيخ

إن هذه العشيرة الكبيرة تسكن أرض ما بين النهرين إلى الجنوب من قناة الصقلاوية حتى أهوار عفج. وهي عشيرة رحالة ومستقرة في الوقت نفسه، تزرع وتغزو ولديها الكثير من الماشية والخيول الجيدة. ورئيسها التقليدي هو (وادي) ولكن بالنظر للمنازعات الأخيرة مع الحكومة، فقد أزيح عن الرئاسة، ونصب صهره شيخاً اسميا على القبيلة، فإن أغلب أراضيها على الجانبين الشرقي والغربي من الفرات، ولاسيما ما يجاور الهندية، يزرعها الشيخ التقليدي والباعة. وقد وضع قبل سنتين ثمن لرأسه. وهو أغنى ملاكي الأراضي في العراق .

وتعد هذه العشيرة ذات قوة كبيرة ؛لأنها تستطيع تجميع (٥٠٠) فارس و (٦٠٠) مسلح بالأسلحة اليدوية، وهي من القبائل السنية، وعلى الغالب مؤيدة للحكومة ولكنها في العهود الأخيرة انحطت معنوياتها بسبب من اتصالها بالمدن. وصيحتهم التقليدية الحربية (جحيش) ورؤساؤها يتسلسلون من عائلة (عبد الله) جدهم الكبير الذي يتصل نسبه بحمير إحدى أعرق القبائل العربية اليمانية. وشيخها الحالي (وادي بن شفلح) يجعل من نفسه نسخة مماثلة لعبد الله. ودعوى التحدر المباشر من هذا البيت تضم حوالي أربعين خيمة. وعندما تقسم العشيرة كلها قسما غير اعتيادي فإنها تحلف بـ (رأس عبد الله) ؛لأن هذا القسم يمس ضمائرهم ولا يمكن الحنث به وعقوبة ازدرائه أو نية الحنث به تعد موجبة للموت، ولكن عوامل التحلل من ذلك التزمت أخذت أخيرا تتخلل التقاليد القديمة لهذه القبيلة.

المعارة	١٥٠	البعشية
الدويجات	٢٠٠	من الرسيسة إلى شرقي الدجلة
البو خضر	١٠٠	البعشية
بني عجيل	١٠٠	الرحمانية

وهم أغنياء بالمواشي والأغنام، ولديهم الكثير من الخيول والجمال، وعليهم طابعا الاستقرار والغزو معا، ويزرعون في أوقات السلم كثيراً من الأراضي تحت حماية عشائر (زبيد).

بني زيد	١٠٠	مع شيخ زبيد
البو بدران	٧٠	الاسكندرية

والأولى في العادة تتبع مخيم الشيخ، وهي تمتلك الجمال بصورة رئيسية لأغراض النقل، وتدفع أتاوة سنوية قدرها (١٠٠٠) شامي.

أما القبيلة الثانية فهي قبيلة مزارعين ولديها القليل من الفرسان والرجالة القادرين على القتال.

عشائر البعيج

الحكارصة	٢٠٠	نضر
السنيد	٢٠٠	نضر
سعده	٢٠٠	نضر والمشرق

وهي من القبائل ذات الطبائع البدوية المعروفة بالفروسية، ويعدون حوالي (٥٠٠) فارس، ولديهم القليل من البنادق والماشية، والكثير من الجمال يقال أنها تصل إلى (٥٠٠٠) وشيخهم هو (عزيز الكيم بن شيحان).

عشائر من الرفيع	٤٠٠	من الشوملي إلى الحي

وهذه القبيلة أقل عدداً من عشيرة (البعيج) ولكنها مثلها تعد من القبائل البدوية، وتستطيع تجميع (٣٠٠) فارس مسلحين بالسهام، ولكن لديهم القليل من البنادق. ويقال إن لديهم (٣٥٠٠) رأس من الجمال ولكنهم فقراء فيما عدا ذلك من الماشية.

آل حميد	٣٠٠	شمالي الحي

وتعد من القبائل البدوية كالقبيلتين المذكورتين آنفا، ولديهم (٣٠٠) فارس مسلح بالسهام، والقليل من البنادق، وفيما عدا ما يملكون من الجمال ويعدون منها (٢٠٠٠) رأس. فإنهم فقراء في الماشية.

عشائر العمارة

الدريجات	١٠٠	من الياسينية إلى الحي
العطاطفه	١٠٠	من العويدة شمالي الحي
آل عابد	١٥٠	من الحويش إلى الرومية
البوغربي	١٠٠	من الرومية إلى الرومية
العليجية	٥٠	من الرومية إلى البدعة
البو عطيه	١٠٠	من البدعة إلى العبادية
اجفانات	٥٠	من العبادية إلى العبادية
ولد بركة	٣٠	من العبادية إلى بثير
البريصات	١٠٠	اليوسفية
البو عميرة	١٠٠	الحرم
الربعين	١٠٠	أم البني
البوصة	١٠٠	النفيشيه
ولد فرج	٥٠	أبو أحمر
آل روضان	٥٠	بشير
آل خماس	١٠٠	البوزفر

كانت هذه القبيلة إلى ثلاثين سنة خلت، من أقوى القبائل في العراق، ولها السيادة الكاملة على كل من شمال وجنوب نهر الحي، وتتحدى الحكم وتأخذ الأتاوات مما حولها. ولكن ازدياد نفوذ عشائر المنتفق في عهدي داود باشا وعلي باشا، حطمها، ولا يبدر منها في الوقت الحاضر إلا القليل من المضايقات. وكان رئيسها الأخير الشيخ

(درويش العامر)، والاسم الأخير هو اللقب الذي يميز العشيرة. وهي تمتلك (٥٠٠) بندقية، وبعض الخيول الجيدة، والكثير من الجمال والأغنام والثيران. وتقع بينهم وبين بني لام معارك بين حين وآخر. وصيحتهم في الحرب (أخوة سعدة).

سياح بيت ناصر	٢٠٠	الصديفه
آل كريم	٢٠٠	شمالي الصديفه
آل رمحة	١٠٠	
آل زيد	١٠٠	بدعه ارحمه
الدبات	١٠٠	بدعة روضان
آل زويهد	١٠٠	أبو جهرة
آل غريب	١٠٠	الزيزة
البو عمرة	٥٠	واسط الحي
البو عيسى	١٠٠	الآخر
الضويهري	١٠٠	متلقى الحي بالفرات
الكويشاب	٥٠	عمية اليول
البو عجاج	٤٠	قزمة الحي

وهذا الجزء من عشائر العمارة يعيش الآن تحت حماية شيخ المنتفق ويزرعون الأراضي التي يخصصها لهم. وهم فقراء ويدفعون عن الأرض التي يزرعونها (٣٠٠) شامي. وقد فقدوا صفة البداوة بسبب ميلهم إلى الاستقرار.

عشيرة السراج

الدلفية	٢٥٠	الجليبية
الحبجيه	٧٠	رجيجة
الضياع	٥٠	سد الناصرية

آل غريب	٥٠	البعيجيه
آل عبيد	٥٠	المواقف
الفراطشية	٢٠٠	عشب أبي بزيزين
آل عقيل	٢٠٠	الحميره
المقاصيص	١٠٠	بدعة عجيه
البودنجى	١٠٠	الخريج
البورشاده	١٢٠	نهر تامر
البو حبيب	٧٠	آل خبه علي
البو كاشي	٧٠	نهر ابن جاسم
بني عقبه	١٥٠	الحميدية

وتنتقل هذه القبيلة على أراضي ما بين النهرين إلى الجنوب الشرقي من الحي إلى نهر هود، وتدين بالولاء إلى شيوخ المنتفق طالما شملتها حماية تلك العشيرة الكبيرة، ولكنها فيما عدا ذلك تكاد تكون مستقلة. والأتاوة المفروضة عليهم تبلغ (١٢٠٠٠) شامي سنوياً، ولكنها لا تدفع إلا نادراً وبعد التهديد، ولا يتم دفعها إلا جزئياً. اما ما لديهم من الأسلحة النارية فهو حوالي (٤٠٠) ويمكن مضاعفة هذا الرقم من الفرسان. وهم يعدون أغنياء بالمفهوم العربي، صيحتهم الحربية هي (أخوة حمده)، ويملكون الكثير من الماشية فضلا عن الجمال، ويمنحون حمايتهم أيضاً لبعض ذوي الجواميس وتخشاهم سفن النقل التجاري المحلية.

البو دراج	٥٠٠	من العواقير إلى الجبلية

وتعرفت إلى هذه العشرية وحادثتهم. وهم يدينون بالولاء إلى بني لام، وفي بعض الأحيان للمنتفق. والأتاوة التي يدفعونها هي (٥٠٠) شامي سنوياً. ويتجولون فيما بين الدجلة والفرات إلى الجنوب الشرقي من الحي. وهم أغنياء بالماشية والجمال والخيول، ولديهم حوالي (٢٠٠) بندقية.

العشائر غير المترابطة

الديرية	٢٠٠	من الجبلية إلى الشطانية
آل معيوف	١٥٠	من الشطانية إلى العديدة
آل مرجان	٢٠٠	من العديدة إلى الهور

وهي عشائر كبيرة تعيش على رعي الأغنام وتسكن في المنطقة نفسها الكائنة إلى الجنوب الشرقي من الحي تحت حماية المنتفق. وهي لا تزرع ولكنها تملك الكثير من الماشية والأغنام وبعض الخيول.

وقد يكون لديهم (٣٥٠) بندقية موزعة على أفراد القبيلة. والجانب الأكبر من العشائر التي تسكن على جانبي الفرات جنوبي نهر الحي هي عشائر المنتفق وأكبر بطونها يتحدر من أحد (أشراف) مكة واسمه (مانع)، كان قد ترك المدينة المقدسة هرباً من ثأر كان قد اشتبك فيه. ويقتضينا وقت طويل – ونحن في هذه العجالة – أن نستقصي أحوال (مانع) ويكفينا القول بأنه ساد قومه بما يمتلكه من مواهب، ووحد بين رؤوس القبائل فتكونت منها عشائر المنتفق.

وهذا ف اليأقل ما ترويه الأخبار.

أما بطون العشيرة فقد تسلسلت كما يأتي:

تزوج (مانع) من ابنة (بركات بن مطلق الشريف) فولدت له (محمد بن مانع) الذي ولد له (سعدون بن محمد) ثم (ثامر بن سعدون) ثم (محمد بن ثامر) ثم (ثامر بن محمد) ثم (مجبل بن ثامر) ثم (محمد بن مجبل) ثم (فارس بن محمد) ثم (عجيل بن فارس).

وتتحدر العوائل الرئيسة لهذه القبيلة من (بني تميم) وبني مالك الأجود و (بني السيد) و (خفاجة) و (بني رجاب) و (البدور).

وقد انقسمت هذه القبيلة على قسمين هما (الأجواد) وتسكن في شمالي (سوق الشيوخ) وحوالي (السماوة) حتى (الحويش) ومناطق نهر الحي، وفي الجنوب في مناطق المنتفق و (سوق الشيوخ) إلى الخليج، وشرقاً إلى (الحويش) وشمالي نهر (هود) وهي في أيدي (بني مالك) أو كما تلفظ خطأ (بني مالج). وفيما عدا (آل شبيب) فإن هذه العشائر تدين بالمذهب الشيعي. وهذا الاسم يسري على القبيلة كما يسري عليها اسم (السعدون) الذين يدينون بالمذهب السني وصيحتهم الحربية هي (الزيود)،على حين أن صيحة (بني مالك) أو (بني طنان الزيدان) كما يسمون في بعض الأحيان هي (ياطنان).

وقد ظلت هذه القبيلة القوية للسنوات الخمس الأخيرة في حالة صراع بعضها بعضا ، فاقتتل أبناء العمومة في سبيل المشيخة، وكانت الحكومة التركية تشعل أوار ذلك النزاع، وفي خلال السنتين الماضيتين نصب ثلاثة شيوخ. والآن يتزعمها (منصور السعدون) ولكنه يلقى معارضة من اتباعه. وفي الوقت الحاضر يناوئه اثنان من الخصوم! أحدهما (صالح) وهو في بغداد، والآخر (فارس) وهو في الصحراء ليس بعيداً عن المدينة يتحينون الفرصة التي قد تسنح بتحريض من (الباشا) وعلى ذلك فقد افتقرت الأرياف التي تسود فيها عشائر (المنتفق) وضاقت عليهم السبل من جراء تناحر الرؤساء.

و(سوق الشيوخ) هي المركز الرئيس لرؤساء هذه القبيلة، وقد كانت في الماضي سوقهم التجارية المفضلة عندما كانت عشائر (المنتفق) تعيش في حالة سلم. فكان يسكنها الكثيرون من التجار من ذوي النفوذ ولكن الاضطرابات الأخيرة جعلتهم يفرون من تعاقب الشيوخ المتناحرين. وتتفاوت الأتاوات التي تدفعها القبيلة إلى خزينة بغداد حسب قسوتها، ولكن من الممكن أن تعد بصورة اعتيادية بحوالي (لك) ونصف من (الشامي) كل عام بشكل نقود أو هدايا لأصحاب السلطة. والقبيلة غنية على كل حال تستطيع أن تدفع أكثر بكثير بما ترضى بدفعه، فكل مناطق النخيل والتمر

في يدها، كما أن لديها الكثير من الماشية، والخيول، والأغنام فضلا عن المزيد من الجمال والمنطقة غنية بالأراضي وفيها الكثير من المزارعين بعضهم أغنياء يعيشون تحت حماية عشائر المنتفق، منهم (أهل الجزاير) و (بني منصور) الذين يعدون أقوياء في حد ذاتهم.

ويلي عشائر المنتفق في التسلسل عشائر بني لام الكبيرة التي تسكن على جانبي الدجلة من نهر الحي وكوت العمارة حتى نهر (الحد)، ويقال إنهم من سلالة قبائل (وائل) المعاصرين لخالد بن الوليد في أيام النبي محمد. وهم متحدون تحت راية واحدة، وهم – كعشائر المنتفق – عرفت عنهم الحزازات فيما بينهم بتحريض من الأتراك، ويتزعمهم في الوقت الحاضر شيخان على قسمين من القبيلة وقد أصابهم ضعف كبير، ويدفعون أتاوة غير منتظمة ولكنها تخمن بحوالي (لك) من (الشامي) بخلاف الهدايا المختلفة.

عشائر بني لام

آل صرخه	١٠٠	علي الغربي
آل ويمي	٢٠٠	علي الغربي حتى التلال
الشحيطات	١٠٠	علي الغربي حتى التلال
آل خزرج	٢٥٠	نهر سعد حتى التلال
الدلفية	٧٠	الجورية حتى التلال
آل حسن	٢٥٠	جبيلة
آل نيكان	١٢٠	العمارة
العطيبات	٤٠٠	الحباسية
الجاعورة	١٢٠	الجبل
آل عونه	٦٠	النويسة
آل حرب	٣٥٠	الخرسانية

آل دبس	٢٠٠	الهرام
آل حمزة	٥٠	رعيشه
آل كنانه الكبير	٥٠٠	العمارة
الدريسات	٦٠٠	مع الشيخ
البو فرادي	٤٠٠	العمارة

مشاهدات جون أشرِ في العراق

المقدمة:

قام (المستر جون اشر) عضو الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، في صيف ١٨٦٤، برحلة طويلة إلى موقع الآثار الإيرانية المعروف باسم برسبوليس، أو تخت جمشيد، القريب من شيراز[١].

وقد بدأ بالتجوال في أوربا حتى وصل إلى بلغراد في يوغوسلافية، ثم عبر منها مجتازاً البلاد البلقانية إلى سواحل البحر الأسود حيث زار أوديسة وسواستابول، وانتقل منها إلى بلاد القرم وبلاد الكرج في قفقاسية. وهناك زار منطقة الداغستان التي كان قد أعلن الثورة فيها على روسية القيصرية يومذاك البطل القفقاسي المسلم شامل باشا أو الشيخ شامل، واستمر في ثورته سنين عدة كان يتحدى فيها جور القياصرة الروس للمحافظة على استقلال المسلمين في تلك الأصقاع الجبلية العصيمة. وقد زار البطل المسلم هذا وإخوته، وعلى رأسهم أخوه غازي محمد، وسائر أعوانه فنشر في الكتاب صورة جملة له. وبذلك تسنى للمستر أشر أن يصف الكثير من أحوال تلك البلاد وعادات أقوامها وطباعهم. وهو يقول إنه وجد في تلك الجهات عدداً من القرى التي كان يسكنها أناس من عبدة النار، فزار معبدهم الذي يسميه (أطش جا) ولذلك نجده ينشر في صدر رحلته المطبوعة صورة ملونة جميلة لمعبد النار وكهنته في باكو بعمائمهم الكبيرة.

---

[١] London to persopolis, including wanderings in Daghestan, Geotgia, Armenia, persia- John Ussher. London, ١٨٦٥.
ملخص ما كتبه صاحب الرحلة عن العراق، وتعليقات عليه في سياق التلخيص.

في بلاد الأناضول:

وقد عبر المستر أشر من تلك الجهات إلى بلاد الأناضول عن طريق قارص وأرمينية، ولهذا نجده يعمد في رحلته إلى وصف الكثير من أحوال الأرمن وبلادهم في تلك الأيام. ويعمد فضلا عن ذلك إلى وصف الكثير من أحوال المناطق الكردية في تلك الجهات، وآثارها أيضاً، ولاسيما منطقة وان وما يجاورها. وهو يشير في ما يذكره عن هذه البلاد إلى أعمال المبشرين الأمريكان الذين كانوا قد نشطوا في العمل منذ تلك الأيام على ما يظهر، واستطاعوا أن يؤسسوا مركزاً من أهم المراكز التبشيرية في ديار بكر وأرومية كما يقول. على أنه يشير بصورة خاصة إلى الصعوبات التي كان يلاقيها أولئك المبشرون، والمقاومة التي كان يبديها رجال الدين الأرمن تجاههم ويضعون العراقيل في طريقهم أينما يذهبون.

وبعد أن زار بدليس وزعرت وغيرهما توجه إلى ديار بكر التي يقول إنها تبعد عن زعرت مسيرة أربعة أيام مع القافلة، وقد دفع سبعين قرشاً عن الشخص الواحد في هذه السفرة. ومما يذكره عن الطريق إلى ديار بكر مروره في بعض القرى اليزيدية والقلاع التي كانت تابعة لهم من قبل. وحينما وصل إلى ديار بكر أنزله الباشا في بيت الخوجة بدول، وهو تاجر أرمني كان يفخر باستضافة السياح الأوربيين في بيته الفسيح. وقد وجد المستر أشر أن هذه المدينة الشهيرة كانت في حالة انحطاط وتدن، وأن سكانها قد هبط عددهم من مئة وخمسين ألف نسمة إلى ثلث هذا العدد تقريباً. ومن طريق ما شاهده فيها انتشار (حبة حلب) أو (الأخت البغدادية) بين السكان انتشاراً يلفت النظر، وهو يقول إنها كانت تسمى هناك (زر حلب) أو (علامة التمر البغدادية)[1]، وأنها لم تكن تصيب السكان فقط بل كانت تصيب جميع زوار البلدة كذلك، حتى أنه يذكر أنه وجد في بابل – يقصد الحلة – حينما زارها بعد ذلك موظفاً تركياً قد أصيب بقرحة كبيرة من هذا النوع يمتد تأثيرها في ذراعه من المعصم إلى

---

[1] Baghdua date- mark.

الكوع. ولم يكن يسلم من الإصابة بهذه (الأخت) حتى القناصل والموظفون الأوربيون الذين كانوا يضطرون إلى الإقامة في البلاد مدة من الزمن.

ومما يذكره رحالتنا عن ديار بكر أنه علم من الباشا وبعض السكان، ومنهم وجهاء المسيحيين، أن مذبحة المسيحيين التي وقعت في الشام سنة ١٨٦٠ كان قد سرى تأثيرها إلى ديار بكر، وأن مذبحة أخرى مثلها كانت ستحصل فيها أيضاً لولا التدابير الحازمة التي اتخذتها حكومة ديار بكر وعلى رأسها الباشا نفسه للحيلولة دون وقوعها. فقد أوعز إلى القوات المسلحة بالتهيؤ للطوارئ، واعتقل عدداً من رجال الدين المتحمسين أيام عدة.

السفر إلى الموصل:

ويقول المستر أشر إن السفر بين ديار بكر والموصل . حينما يكون دجلة ممتلئاً بالماء، يتسم عادة (بالأكلاك)؛لأنه اسلم وأسرع، ولذلك كان يفضله التجار والمسافرون على السفر مع القوافل بطريق البر. لكنه لم يستطع السفر بهذا الطريق نظراً لانخفاض مستوى الماء في النهر؛ ولذلك تحرك من ديار بكر في يوم ٢٣ تشرين الثاني بطريق القوافل المار بماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر وزاخو عادة. وكان قد اتفق مع رئيس إحدى القوافل – الشرودار– على دفع مئة وخمسة وثلاثين قرشاً عن الحيوان الواحد (أي باون وثلاثة شلنات)، لأن المسافة كانت طويلة تمتد إلى ثلاث مئة ميل على حد تقديره، وتستغرق ثلاثة عشر يوماً من الزمان.

وفيما يقرب من نصيبين التقت قافلة أشر بباشا البصرة عائداً في قافلة خاصة إلى استانبول، بعد أن انتهت مدة باشويته فيها. والمعروف في المراجع التاريخية أن مسلم البصرة قبيل هذا الوقت كان يدعى سليمان بك، وأن البصرة كانت حينذاك مرتبطة بولاية بغداد التي كان يتربع على دست الحكم فيها نامق باشا الكبير خلال مدة حكمه الثانية. وكانت قافلة باشا البصرة هذه كبيرة ينضوي تحت لوائها الحريم والخدم

والعفش وما أشبه. وكانت فيها سيدتان محمولتان في (تخت روان) خاص، ومن ورائهما الخدم النساء اللواتي كن يمتطين البغال على شاكلة الرجال. وكانت في قافلة الباشا كذلك سيدة أوربية تمتطي أحد الخيول وعلى رأسها قبعة واطئة مزينة بالريش، وفي صحبتها رجلان أحدهما هنغاري وهو زوجها. وكان هذا مستخدماً عند الباشا ومرافقاً له، أما الآخر فقد كان مترجماً للعمال الذين كانوا قد استؤجروا لمد الإسلاك التلغرافية إلى بغداد، وقد انتهت مهمته فعاد مع هذه القافلة إلى استانبول.

ومع أن الطريق البري المار بالبادية ما بين الموصل ونصيبين هو أقصر الطرق وأسهلها، إلا أنه كان طريقا مخطراً يتعرض المسافر فيه إلى هجمات الأعراب من قبائل عنزة المعروفة التي كانت تسيطر عليه في تلك الأيام. غير أن باشا البصرة لم يعبأ بذلك فسلكه معتمداً على دليل من أدلاء العشيرة نفسها بعد أن دفع له مبلغاً غير يسير من المال.

ومن طريق ما يذكره (المستر أشر) عن بقائه في نصيبين نفسها أنه تعرف على أحد الضباط الأتراك فيها، وقد أخبره هذا الضابط بأنه كان قد عاش مدة من الزمن في بغداد وتعرف فيها على ربان الباخرة الإنكليزية التي كانت تمخر مياه دجلة صاعدة إلى نصيبين، وأنه – أي الضابط – كان قد أكل لحم الخنزير وشرب الشراب والنبيذ. ويعلق (المستر أشر) على ذلك قائلاً إن الضابط التركي كان يقصد بقوله هذا أن يبرهن له على مقدار تمدنه وتفوقه على سائر أبناء وطنه وبلاده.

وحينما خرجت قافلة (أشر) من نصيبين عبرت دجلة على جسر ممتد فوق الزوارق المصفوفة إلى الجانب الأيسر منها، وبعد مسيرة استغرقت ساعات عدة قضت القافلة ليلتها في قرية كلدانية يقال لها نهر وان. ثم استأنفت السير في اليوم التالي فوصلت بعد ست ساعات إلى زاخو.

زاخو:

ويقول (أشر) إنهم وصلوا إلى زاخو عن طريق الخابور الذي عبرته القافلة فألفت نفسها في داخل البلدة. وكان النهر ضيقاً متعرجاً، لكنه كان عميقاً سريعاً في تدفقه. أما ماء النهر فقد كان صافياً وكان فيه الكثير من السمك الكبير في الحجم، لكنه تعجب حينما علم أن سكان البلدة لم يحاولوا في يوم من الأيام أن يصطادوه أو يستفيدوا منه في مأكلهم.

وكانت زاخو كما يفهم مما جاء في الرحلة، مقراً لأحد الرؤساء الأكراد شبه المستقلين حتى وقت متأخر، لكنه وجد فيها في يوم وصوله إليها مديراً تركياً يسيطر على شؤونها. وقد ألفاها بلدة تضاهي جزيرة ابن عمر في اتساعها لكنها أكثر منها تقدماً وازدهاراً. ولم يلاحظ فيها كثيراً من البيوت المتهدمة التي شاهدها في جزيرة ابن عمر، التي بطش الأتراك برئيسها الأمير البدرخاني، غير أنه لاحظ خرائب قصر الرئيس الكردي المذكور في الجانب الشرقي منها.

وبعد أن يشير إلى ضيق أسواقها وأزقتها المتعرجة يذكر أن معظم ما كان يباع في الأسواق من بضائع وسلع أجنبية كان من أقمشة (مانجستر) القطنية، وأن سكان البلدة خليط من الأكراد والكلدان والأرمنه، وأن الأرمن هم أصحاب الدكاكين في الغالب.

ثم ترك زاخو وتوجه جنوباً إلى الموصل مخترقاً جبل زاخو – زاخو طاغ – الذي لم تكن قممه عالية في رأيه، ولا تتجاوز الألفين أو الألفين والخمس مئة في الارتفاع عن السهول المحيطة بها. واتجه بعد ذلك في اتجاه جنوبي شرقي في الطريق الذي سلكته حملة العشرة آلاف على حد قوله حتى وصل إلى الموصل. وقد مرّ في طريقه هذا بقرى متكونة من بيوت مبنية من القصب المحبوك المبيض بالطين الكثيف، حتى وصلت القافلة به إلى قرية تل اسقف المسيحية أو الكلدانية على حد تعبيره. ومن

ثم مر بالقرى الكلدانية الأخرى المعروفة مثل بطناية وتلكيف التي بانت للقافلة منها قباب الموصل ومنائرها عن بعد.

الموصل:

وحينما وصل إلى ضفاف دجلة جعل آثار نينوى وأسوارها إلى يساره، وتلال قوينجق والنبي يونس إلى الوراء وعبر الجسر إلى الجانب الغربي. ويظهر من الوصف الوارد في الرحلة أن موقع الجسر المشار إليه يكاد يقارب الموقع الحالي للجسر القديم (الشمالي). وقد كان هذا الجسر متكوناً من الزوارق، وبحالة خربة على ما يبدو. ثم دخل المدينة من باب كبيرة في السور تقابل النهر، ومن هناك توجه خلال الأزقة المزدحمة بالحمير والجمال إلى دار (المستر رسام) نائب القنصل البريطاني في الموصل الذي كان اسمه يقترن بحفريات (لايارد) واكتشافاته الأثرية المعروفة.

والظاهر من وصف رحالتنا هذا لدار (المستر رسام) والثناء عليها أنها كانت أجمل دار في الموصل، ومن أوسع الدور فيها. فهو يقول إنها قد شيدها أغا الانكشارية قبل إعلان (التنظيمات) بسنوات عدة، وصرف عليها كثيراً من ثروته الطائلة. غير أن باشا الموصل في تلك الأيام كان يحسده على هذه الثروة والغنى، ولذلك ظل يتربص به الفرص، ويختلق له الأسباب، حتى تمكن من القبض عليه بجريمة ملفقة فقطع رأسه بسببها. ثم صادر أمواله المنقولة كلها واغتصبها لنفسه. فاضطرت أسرته المنكوبة التي أنزلت إلى منزلة العوز والفاقة من جراء ذلك إلى بيع ما تبقى من ممتلكاته فاستطاع (المستر رسام) شراء تلك الدار الكبيرة التي تكلف بناؤها مبلغاً يناهز الستة آلاف باون في تلك الأيام بمبلغ زهيد قدره ثلاث مئة باون فقط. ومن طريق ما ورد في وصف الدار في الرحلة أن باحتها الفسيحة كانت مبلطة بقطع كبيرة من المرمر الفاخر الذي جيء بالقسم الكبير منه من خرائب نينوى وحفرياتها. ولا غرو فإن (المستر رسام) كان قد اتهم بسرقة الآثار والتصرف بها لمصلحته الشخصية حينما اعتمد عليه (المستر لايارد) وأودع إليه متابعة العمل بعد أن ترك الموصل إلى انكلترا، وكان الاتهام

موجهاً إليه وإلى (المستر لايارد) نفسه من إدارة المتحف البريطاني الذي جهز (لايارد) بالمال اللازم للعمل. ومع أن المستر لايارد كان يدافع عنه ويبرىء ذمته فيما كتبه ونشره من الكتب والرسائل، فإن الشكوك كانت تحوم حوله بكثرة وتذهب إلى تصديق ما اتهم به في كثير من الأحيان.

ومما يذكره عن الموصل كذلك زيارته، بصحبة (المستر رسام) لمواقع الآثار القديمة والحفريات التي أجراها (لايارد) في ١٨٥٢. وهو يصف الكثير منها وصفاً مفيداً طريفاً. وفيما عدا هذا يشير إلى تعرفه في الموصل على الدكتور هسكل، المبشر الأمريكي وزوجه الجميلة، وإلى أزماعه على تركها بعد أن قضى فيها سنين عدة أشرف فيها على المدارس التي كانت تديرها الإرسالية الأمريكية للتبشير في أم الربيعين.

ويأتي (المستر أشر) في رحلته على وصف مدينة الموصل بوجه عام أيضاً. فهو يقول إنها كانت في السابق أكبر وأوسع بكثير مما كانت عليه في يوم زيارته لها، ولذلك تشاهد في داخل أسوارها بقع من الأرض فسيحة خالية. وأن أسوارها عالية ومنيعة، لأنها مبنية بقطع كبيرة من الحجر ومجهزة بعدد غير يسير من الحصون والأبراج. وقد كانت كلها بحالة جيدة تستطيع المدينة بوساطتها أن تصمد للحصار مدة من الزمن في وجه القوات التي يمكن أن تقدم على محاصرتها من دون أن تكون مزودة بالمدفعية المعتادة.

وقد شاهد فيها عدداً كبيراً من المساجد والجوامع التي لا يسمح لغير المسلمين بالدخول إليها، كما شاهد عدداً من كنائس الكلدان والأرمن. أما الشوارع والأزقة فقد وجدها أنظف وأحسن مما توصف به في الخارج عادة، لأنها كانت على شيء من الاتساع ومبلطة أحياناً من دون أن تكثر فيها الأوساخ كما هي الحالة في ديار بكر. وبعد أن يصف البيوت بمرافقها وطراز بنائها المألوف لدينا، يتطرق إلى ذكر الأسواق فيقول إنها واسعة لكنها قذرة ومحرومة من العناية اللازمة. يضاف إلى ذلك أنه ألفاها

مزدحمة في أغلب الأحيان . لأنها على حد . قوله تعد مجمعاً لأكراد الجبال وأعراب البوادي الذين يلتقون فيها للتعامل ومبادلة السلع والمنتجات.

ويعود إلى أصحاب الدكاكين في الأسواق فيقول إنهم مسيحيون في الغالب، ومعظمهم من الأرمن الذين يبدو أن قابليتهم ومقدرتهم في شؤون التجارة قد جعلتهم ينتشرون في الشرق بحيث تجدهم موجودين حتى في أبعد القرى وأوعر المسالك. وأغلب ما وجد من السلع في الأسواق الأصباغ والأقمشة القطنية، بجانب الأطعمة والمأكولات التي يحتاجها سكان المدن. وقد شاهد الكثير من مصنوعات (مانجستر) و(شفيلد) فيها على حسب المعتاد.

ومما يذكره عن الموصل كذلك قوله إن الواسطة الوحيدة للاتصال ما بين جانبيها كان جسر الزوارق البالي الضيق، المزدحم بالعابرين في أغلب الأوقات ولا سيما ساعات ما قبل الظهر التي يبلغ فيها الازدحام حداً يصعب فيه على المرء شق طريقه بين المارة في كثير من الأحيان. ويشير بهذه المناسبة إلى أن الموصل كان فيها جسر حجري مناسب، لكنه أهمل شأنه فتهدم ولم تبذل أية محاولة لإعادة بنائه من قبل الأتراك.

ويتطرق أيضاً إلى البحث في شؤون الطوائف المسيحية وتاريخها، في معرض الإشارة إلى زيارته لبطريرك الكلدان في يوم ٩ كانون الأول ١٨٦٤ بصحبة (المستر رسام). وهو يثني ثناء عطراً على هذه الطائفة وبطريركها الوقور المبجل، ويقول إنه أخبره بأن الطائفة في وضع حسن وهو يأمل لها التقدم والازدهار إذا ما تأمنت حمايتها من جور الأتراك وجشعهم، وأن عدد أفراد طائفته في ازدياد مطرد. ثم يشير إلى المشاكل التي يعانيها هذا البطريرك الجليل من وجود الرهبان الدومينيكان في الموصل، الذين كانوا يناصبونه العداء ويدسون عليه وعلى أفراد طائفته في كل فرصة أو مناسبة.

اليزيدية:

ويكرس (المستر أشر) فصلاً كبيراً من الرحلة إلى البحث عن اليزيدية، وزيارته لأماكنهم المقدسة في الشيخ عدي (عادي). فقد توجه في يوم ١٠ كانون الأول إلى (عين سفني) وفي يده توصية مكتوبة بالعربية إلى حسين بك رئيس الطائفة اليزيدية من (المستر رسام) نائب القنصل الإنكليزي. وفي الطريق إلى (عين سفني) يصف ما يصادفه من قرى ومعالم طبيعية، ويأتي بصورة خاصة على وصف قرية خرسباد مع تاريخها الغابر وآثارها القديمة ويشير إلى الثيران المجنحة التي اكتشفها فيها لأول مرة (المسيو بوتا) نائب القنصل الفرنسي السابق في الموصل، وصديق (لايارد) وغريمه في وقت واحد.

ومما يذكره عن اليزيدية، بعد أن زار معابدهم وأماكنهم المقدسة، أنهم يدعون بأصالة عقائدهم وعراقتها في القدم، ويزعمون أن الإيرانيين المجوس الذين كانوا يعبدون النار قد بنوا عقيدتهم بمبدأي الخير والشر على سوء فهمهم لجزء من عقائد اليزيدية المخفية، التي تسربت معرفتها إلى غيرهم بطريقة من الطرق. وبعد أن يشير إلى الكثير مما يذكره عنهم الناس ولاسيما مظاهر الإباحية التي تقترف في بعض ليالي السنة بعد أطفاء الأنوار، يقول إن الأتراك يطلقون عليهم من أجل هذا اسم (جراغون سوندرون) أو (مطفئو الأنوار).

وحينما يتطرق إلى البحث عن رجال الدين عندهم يقول إنهم يقسمون على طبقات أربع، فيطلق على رجال الطبقتين الأولى والثانية كلهم اسم الشيوخ على الرغم التفاوت الموجود فيما بينهم، كما يطلق على رجال الطبقة الثالثة اسم (القوالين) وهؤلاء يسافرون في مواسم معينة من السنة ويدورون على الجاليات اليزيدية في مختلف الأماكن ليعلموا الناشئين بعضا من تعاليم الطائفة. وتقع على عاتق هؤلاء معظم أعباء الخدمات الدينية المعتادة، وهم يلبسون الملابس البيضاء والعمائم السود. أما الطبقة الرابعة فتضم ما يسمونهم بالفقراء الذين شاهد منهم (المستر أشر) عدداً غير يسير في

مرقد الشيخ عدي. وهؤلاء يقابلون الخدم الذين يشاهدون في أماكن العبادة والعتبات المقدسة التابعة للأديان الأخرى. ويختلف هؤلاء عن أفراد الطبقات الأخرى بكونهم يلبسون الألبسة السوداء أو السمراء في العادة.

ويذكر كذلك عن عقائدهم وعاداتهم أنهم لا يبيحون للرجل منهم إلا التزوج بامرأة واحدة ويختتنون في بعض الأحيان، ويدفنون موتاهم بحيث تتجه رؤوسهم نحو النجم القطبي الذي يتجهون إليه في صلواتهم. كما أنهم يجلون الشمس ويقدسونها تمام التقديس، وتعرف عندهم باسم (الشيخ شمس) ويضمرون للنار شيئاً غير يسير من التقدير، ولذلك فهم يتحاشون الإساءة إليها أو إطفاءها إلا بأنظف الوسائل وأهودها. وكثيراً ما يمرون بأيديهم فيها ويمسحون أوجههم بها، ولا يعلم السبب في مجافاتهم للون الأزرق وتجنبهم للأشياء الملونة به.

ويلاحظ فيما كتبه هذا الرحالة كذلك أنه يشير إلى أن حسين بك أمير اليزيدية لم يستقبلهم بالحسنى في بادىء الأمر، وكان الدافع لذلك أنه كان مديناً بمبلغ غير يسير (للمستر رسام) نائب القنصل وان (المستر رسام) كان قد بعث يلح عليه بتسديد الدين قبل وصولهم بأيام معدودة، الأمر الذي أدى إلى ازعاجه وتذمره من موقف نائب القنصل منه في هذا الشأن.

التهيؤ للسفر إلى بغداد:

وحينما عاد (المستر أشر) وجماعته من زيارتهم لمعاقل اليزيدية وأماكنهم المقدسة، وجد أن الترتيبات التي كان قد أوصى باتخاذها استعداداً للسفر إلى بغداد بطريق دجلة قد اتخذت جميعها. فقد انشىء له (كلك) خاص كبير يبلغ طوله خمسة وعشرين قدماً وعرضه ثمانية عشر، ويتكون من مئة وستين قربة منفوخة مستمدة من جلود المعز، وقد وصف فوقها القصب والأخشاب بمقادير كافية ورتب فوقها كل شيء بحيث تضمن فيه راحتهم خلال سفرتهم الطويلة إلى عاصمة الخلفاء العتيدة على

حد قوله. وهو يذكر بالمناسبة أن وسيلة السفر بالأكلاك عريقة في القدم في هذه البلاد، ويبرهن على ذلك بوجود رسوم بارزة منحوتة فوق المرمر في المتحف البريطاني، بين اللقى التي نقلها (لايارد) إلى هناك بعد أن عثر عليها خلال حفرياته في مواقع الآثار الآشورية القديمة في نينوى وغيرها. ومما يقول عن طوفان الأكلاك وسرعة سيرها في دجلة أنها تقطع المسافة بين الموصل وبغداد في مدة لا تتجاوز الثلاثة أيام ونصف أو الأربعة حينما يمتلىء النهر بالمياه في شهري نيسان ومايس لاسيما. أما الشتاء الذي ينخفض فيه مستوى الماء في النهر فإن الأكلاك تقطع هذه المسافة في أثنائه بمدة تتراوح بين ثمانية وعشرة أيام.

في الطريق إلى بغداد

وفي اليوم الرابع عشر من كانون الأول ١٨٦٤ تحرك الكلك من الموصل بعد أن أطلقت عيارات نارية عدة عمن البنادق الصدئة إيذاناً بالإقلاع، وأول ما شاهده ركاب الكلك على طول الضفتين (شطيات) الخيار والرقي التي تركت بانتهاء موسمها. وبالنظر لبطء المجرى واتجاه الريح الجنوبية لم يستطع الكلك الوصول خلال اليوم الأول إلى أبعد من حمام العليل الذي استقبلهم فيه روائح الغازات الكبريتية التي كان يمتلىء الجو بها.

وبعد أن أقلع الكلك للمسير في صباح اليوم التالي، وانحدر برهة من الزمن، وصل إلى أطلال نمرود الكائنة في الجانب الأيسر من النهر فنزل ركابه لمشاهدة الآثار فيها بينما انحدر الكلك مع صاحبيه ليجتاز بقفزة رشيقة السد القديم الذي يطلق عليه الأهلون هناك (سكر النمرود). ويقول (المستر اشر) إن هذا السد لابد من أن يكون ملوك الآشوريين القدماء هم الذين كانوا قد أنشأوه عبر دجلة لرفع سوية الماء فيه وتوجيهه إلى الجداول والقنوات لري المزروعات. كما يقول إنه شاهد كتلة كبيرة منه ناتئة من فوق سطح الماء الذي كان يتدفق من حوليها على شكل شلال له دوي عال وخرير مسموع.

ومن طريق ما يذكره في هذا الشأن أنهم حينما ذهبوا لمشاهدة الآثار والحفريات تجمع حولهم القرويون وأعراب المنطقة ليسألوهم عن عودة لايارد إلى استئناف التنقيب الذي كان قد أجراه هناك سنة ١٨٥٢. ويذكر بالمناسبة كذلك أن المؤرخ اليوناني زينوفون يصف هذه المدينة الأثرية خلال بحثه عن حملة العشرة آلاف، ويطلق عليها اسم لاريسا.

وبعد أن وزع رحالتنا (البخشيش) على من كان متجمعاً من حوله من عمال التنقيب الأصليين على حد قوله عاد مع حاشيته إلى الكلك، الذي استأنف الانحدار حتى وصل بعد أميال معدودة إلى سد آخر، ممتد عبر دجلة، يدعى (سكر إسماعيل). وقد تمكن الكلك من اجتيازه من دون وقوع حادث يذكر، واستأنف الانحدار حتى وصل بعد ساعات معدودة إلى مصب الزاب الكبير في دجلة. وكانوا منذ أن غادروا الموصل قد لاحظوا تحويم الكثير من أسراب البط والوز من فوقهم، وشاهدوا في كل دورة للنهر أو منعرج تجمعاتها وهي تقتات في الشواطىء. وحينما تمادوا في السير صاروا يلاحظون عند الغروب توارد الخنازير البرية على النهر لورود الماء، وعند ذاك اضطروا للرسو بالقرب من الساحل إلى صباح اليوم الثاني الذي استمروا فيه بالسير حتى وصلوا اليوم الثاني إلى قلعة الشرقاط في وقت متأخر من مسائه، بعد أن اجتازوا. قبل الوصول إليها. مناطق تكثر فيها تيارات الماء السريعة في النهر.

وقد تسنى لهم في هذه المنطقة زيارة الآثار القديمة القريبة من الشرقاط، التي يزيد طول محيطها على الميلين. وهو يقول إن الاسم القديم لهذه المدينة الآشورية القديمة لم يستطع أحد التأكد منه حتى ذلك التاريخ، مع أن الكثير من الكتابات تشير إلى وجود أسماء الملوك الآشوريين الذين تلاحظ أسماؤهم في آثار نمرود كذلك.

ولا يخفى أن التنقيبات الأثرية، والدراسات التأريخية التي أجريت بعد ذلك، تدل على أن الآثار القديمة الموجودة على مقربة من الشرقاط هي أطلال مدينة (آشور) العاصمة الأولى التي ولدت فيها الإمبراطورية الآشورية المعظمة. ففي حوالي سنة

(٣٠٠٠) قبل الميلاد جاءت جموع الساميين من بادية الشام فاستقرت في هذه المنطقة المطلة على دجلة كما استقر اقرباؤهم الأكديون من قبل حينما استوطنوا في مدن ما بين النهرين الجنوبية. وقد كانوا أول من استفاد من الخيول إلى أقصى حد ممكن بعد أن كانت قد أدخلت إلى العراق قبيل مجيئهم إليه.

وبعد أن تابع (المستر أشر) وجماعته السير إلى الجنوب صادفوا عند أول خروجهم من منطقة الشرقاط فريقاً كبيراً من بدو شمر عائدين من غزوة مظفرة في الجانب الأيسر من النهر، وقد استاقوا أمامهم قطعاناً كبيرة من الأغنام وسائر الحيوانات التي كانوا قد نهبوها من خصومهم. وكانوا يهمون بالعبور معها إلى الضفة اليمنى، بعد أن عبر قبلهم رئيسهم على ظهر فرسه الأصيلة. وفي الرحلة المطبوعة صورة ملونة جميلة لعملية العبور هذه.

وفي مساء ذلك اليوم مر الكلك بمصب الزاب الصغير الذي كان محاطاً بغابة كثيفة من الأشجار. وقد لاحظوا بالقرب من الغابة تلال عدة واطئة كانت تقوم فوق أحدها قبة صغيرة لولي من الأولياء يدعى محمد ولي، كما صادفوا بالقرب من المصب شلالاً خطراً.

تكريت وسامراء والدور:

وقد وصلوا في مساء اليوم التالي إلى تكريت، وقضوا ليلتهم في الكلك الذي ألقوا مراسيه عند الساحل. ويقول عن تكريت إنها بلدة صغيرة تتألف من مئات عدة من البيوت. بعد أن كانت مدينة كبيرة من قبل. وهي مسقط رأس صلاح الدين المشهور في الحروب الصليبية الذي كان والده الكردي ـ حاكم البلدة ـ يسكن في قلعتها المعروفة. والقلعة مبنية فوق صخرة كبيرة من الصخور الرملية ترتفع فوق الماء إلى علو مئتي قدم تقريباً، وتحاط من ثلاثة جوانب بخندق عريض عميق كان يملأ بالماء من دجلة في السابق على ما يروي الأهلون. ويحيط بالبلدة سور متهدم يضم في داخله

أكواماً كثيرة من الزبل تنتشر ما بين المساجد الخربة والأبنية الأخرى. وقد وجد فيها أول نخلة من النخيل يقع نظره عليها، وأول (قفة) من (القفف) التي يكثر وجودها في بغداد على حد قوله.

وحينما استأنفوا الرحلة في صباح اليوم التالي وصلوا بعد ساعات إلى قرية الدور (في الجانب الأيسر) التي شاهدوا فيها قبة الإمام الدوري. ويذكر (المستر اشر) بهذه المناسبة أن القائد الروماني (جوليان)، المسمى بالمرتد، قد قتل في هذه الجهات بعد الموقعة التي جرت مع الجيش الإيراني في الجنوب. وفي هذا المكان استطاع خلفه جوفيان أن يحافظ على بقايا جيشه بعقد صلح مذل مع سابور يتنازل فيه عن جميع الممتلكات الرومانية الكائنة في شرق دجلة. وقد عبر النهر بعد ذلك على جسر عائم متكون من جلود الأغنام والثيران والمعز المغطاة بالتراب والحطب، وبدأ بتقهقره الطويل المعروف. ويعتقد صاحب الرحلة كذلك بأن بختنصر البابلي قد شيد في هذا المكان صورة من الذهب يبلغ ارتفاعها ستين ذراعاً وعرضها ستة أذرع، وطلب إلى جميع الناس الركوع لها. وقد استند الى ذلك على ما كتبه غيبون في تأريخه.

على أن قصة المعركة التي وقعت بين جوليان الروماني والإيرانيين يرويها سيتون لويد في (الرافدان)[١] بشيء من الاختلاف.

فهو يقول إن جوليان نزل من أعالي الفرات مع جيوشه وأسطوله لمهاجمة الإيرانيين في طيسفون، فجرت له موقعة حامية معهم تغلب فيها عليهم، واضطروا إلى التراجع إلى داخل الأسوار والمحاصرة فيها.

وحينما علم أن الملك سابور كان في طريقه لإنجاد طيسفون قرر رفع الحصار عنها والزحف لمهاجمة الولايات الجبلية عن طريق ديالى. فالتقى جيشه المنهك بجيش سابور في منطقة جبل حمرين، وهناك اندحر الرومان وقتل قائدهم جوليان. وعلى إثر

[١] النص ١٢٣ من الأصل الإنكليزي.

ذلك أخذ الجيش الروماني بالتقهقر إلى الغرب، ولم يستطع الوصول إلى دجلة في منطقة تقرب من سامراء إلا قسم قليل منه، فعبرها في الدور.

ومر الكلك بعد ذلك بمصب النهروان، ثم وصلوا في مساء ذلك اليوم إلى ما يقابل خرائب (اسكي بغداد) التي كانت تشغل رقعة كبيرة من الأرض. ويقول (المستر أشر) إن هذا الاسم أطلقه العرب يومذاك على أطلال هذه البلدة الفارسية أو العربية القديمة. ويظهر من الوضع والموقع أنه ربما يقصد بهذه الأطلال قصور الخلفاء العباسيين في شمال سامراء المطلة على النهر. وفي صباح اليوم التالي مروا بأطلال قصر العاشق قبيل الوصول إلى سامراء.

أما سامراء نفسها فقد وجدها (المستر أشر) (بلدة) غير صغيرة فيها عدد كبير من السكان، وشاهد فيها الملوية التي سماها برجا وقدر ارتفاعها بمئة قدم. وهو يقول إن آثار العباسيين فيها كانت مغطاة بأكوام كبيرة من التراب والأنقاض، ويشير إلى تقديس المسلمين الشيعة لمرقد الإمامين العسكريين، وغيبة الإمام الحجة (صاحب الزمان) فيها.

بين سامراء وبغداد:

وعند استئناف الرحلة وصل (الكل) في مساء ذلك اليوم إلى خرائب اصطبلات فألقى مراسيه بالقرب منها للمبيت في تلك الليلة.

لكنه حينما تابع المسير في صباح اليوم التالي وصل بعد ساعات إلى أطلال تختلف عن الأطلال التي شاهدها الرحالة من قبل في رحلته هذه. وكانت تتألف من جدران متهدمة وبقايا أقواس مبنية بالآجر مع آثار الزينة بارزة فيها، وبقايا عدد من الأبراج وما أشبه، وهي منتشرة في السهل الممتد في الجانب الأيسر من النهر. وقد كانت هذه على حد قوله أطلال القادسية، المدينة الفارسية القديمة التي انتصر فيها العرب بقيادة القائد العربي سعد بن أبي وقاص. في أيام الخليفة عمر. على الفرس الذين

كان يقودهم رستم بن يزدجرد آخر ملوك الساسانيين. ويقول المستر أشر إن هذه الموقعة قضت على الدولة الإيرانية ونشرت الديانة الإسلامية في الشرق.

وعلى طول الطريق من هذا الموقع إلى ما يقرب من الكاظمية شاهد رحالتنا في الضفتين عدداً كبيراً من (الكرود) والبساتين والمزارع، فوصفها في رحلته بالوصف المعتاد. لكنه يقول إنه شاهد قبيل الدخول إلى منطقة الكاظمية عبارة من القفف الكبيرة كانت تنقل من الضفة اليسرى إلى اليمنى أعداداً من البغال محملة بالجنائز المنقولة من إيران بقصد الدفن في كربلاء أو مشهد الإمام الحسين على حد قوله. وكان كل حيوان يحمل جنازتين، وبعضها يحمل ست جنائز، ولم تكن الجنائز هذه سوى صناديق طويلة مصنوعة من اللوح الخفيف ومغطاة باللباد تحتوي في داخلها على الجثث التي تنقل في العادة بعد أن تكون قد دفنت في الأرض لمدة سنة أو سنتين. ولا ينسى أن يشير بالمناسبة إلى أن الإيرانيين الميسري الحال ينقلون الجنائز للدفن عند أول وفاة أصحابها، أما الفقراء فلا ينقلونها إلا بعد أن يكون الأقارب قد جمعوا المبالغ المطلوبة لمصروفات النقل والسفر. وعند ذلك تستحيل الجثث إلى رفات من العظام النخرة.

وقد بانت له بعد ذلك منطقة الكاظمية من بعيد، وبانت معها منائر وقباب المشهد الكاظمي المذهبة وهي تتوسط غابة من النخيل الممتد إلى جميع الجهات. ويقول إن هذه المنطقة تعد مصيفاً عظيماً لسكان بغداد القريبة منها. ثم يذكر أنهم مروا بعد ذلك بمسجد يقع على حافة النهر كان يبدو وكأنه قد قسم على قسمين، فتهدم نصف من قبته وما يحيط بها من بناء فسقط في النهر، وبقي نصف القبة الآخر مع القسم الباقي من البناء قائماً على ضفة النهر.

على أن (المستر أشر) لم يذكر الجهة التي شاهد فيها هذا الجامع والقبة، أهي الضفة الشرقية أم الغربية؟ ولا شك في أن قوله هذا يذكرنا بقبر الإمام أحمد بن حنبل الذي يقول عنه الرحالة المشهور نيبور (الذي كان في بغداد سنة ١٧٦٥) في رحلته "..

ويقع قبر الإمام أحمد بن حنبل أحد أئمة السنة الأربعة العظام بين الكاظمية والأعظمية وقد جرفه ماء دجلة". ولا يمكن أن يكون ما يشير إليه (أشر) هو ما يذكره صاحب هذه الرحلة نفسه لأن نيبور جاء إلى هذه البلاد قبل أشر بمئة سنة وقبل عهدنا هذا بمئتي سنة. على أننا لا بد أن نذكر بهذه المناسبة كذلك أنه يستفاد من تعليقات الدكتور مصطفى جواد في حواشي ترجمة (بغداد مدينة السلام) لريشارد كوك أن الإمام أحمد بن حنبل قد دفن في مقبرة حرب الواقعة شمال غربي الكاظمية الحالية، وأن القبر الواقع بين الأعظمية والكاظمية على ضفة دجلة الغربية كان لولده عبد الله بن أحمد بن حنبل الذي دفن في القطيعة الزبيدية قرب دجلة، وحينما جرفت مياه دجلة قبره عدوا ذلك زوالاً لقبر أبيه. والمعتقد بأن قبر الأخير قد أزيل في عهد الصفويين بعد سنة ١٥٠٨.

مشاهداته في بغداد:

وحينما دخل (الكلك) إلى حدود بغداد كانت أول بناية لفتت نظر (المستر أشر) وحاشيته في الجانب الشرقي بناية كبيرة كئيبة يبدو فيها الإهمال والخراب، وقد ناداهم من شبابيكها المطلة على النهر بعض الضباط الذين كانوا يريدون معرفة من يكونوا هم، ومن أين جاءوا؟ وكانت هذه قصر الباشا ثاني شخصية في الإمبراطورية التركية بعد الصدر الأعظم على قوله. وكانت هناك إلى جانب القصر دار أخرى تضاهيه في مظهره القذر الوضيع. وأخيراً وصلوا إلى ما يقرب من جسر الزوارق، وبعد أن نادوا على (الجسارة) المسؤولين عنه نحيت ثلاثة من زوارقه جانباً ففتحت فتحة واسعة في الجسر عبر منها (الكلك) إلى الجانب الآخر منه. وبعد ثلاثة أرباع الميل ألقى (الكلك) مراسيه في أسفل الشرفة الواسعة، المزدانة بشجر النارنج والبرتقال، التي كانت تطل منها القنصلية البريطانية العامة على الضفة اليسرى من النهر. وبذلك انتهت سفرة (أشر) النهرية من تركية إلى بغداد عن طريق نهر دجلة.

وقد وجد (المستر أشر) أن (الكولونيل كيمبول)[1] المقيم والقنصل البريطاني العام في بغداد يومذاك كان متغيباً في إجازة، وأن الدكتور (هيسلوب)[2] يتوكل بالنيابة عنه. فدعاهم إلى النزول في القنصلية خلال مدة مكثهم في بغداد، وهناك وجدوا رزمة من الرسائل والمكاتيب بانتظارهم فسروا بها لأنهم لم يكونوا قد تسلموا شيئاً منها خلال مدة تزيد على الستة أشهر.

وكانت بناية المقيمية، أو القنصلية العامة، بناية كبيرة كثيرة الغرف والمرافق، وكان البعض من أجنحتها مطلاً على دجلة ومؤثثاً بأثاث فخم جميل على الطراز الفارسي الذي يتميز بوجود الكثير من المرايا. وهي من أملاك عم ملك أوده (أحد النوابين) الذي كان يقيم في بغداد ويمتلك فيها عدداً من الدور وأنواعاً أخرى من الثروة. وكان هو نفسه قد تمتع بالملكية لساعات قلائل فقط على أثر وفاة والد الملك الأخير في الهند. غير أن المقيم البريطاني في أوده يومذاك أشعره بهدوء أن الحكومة البريطانية لا تسمح له بتسنم الملكية فتنازل عن ادعائه بها، ورحل بعد أمد قصير إلى بغداد التي يبدو أنه يحيا حياة مقبولة فيها. وكانت تتولى حراسة المقيمية مفرزة من جنود السباه التابعين للجيش الهندي في بومبي، أما خدمها فقد كان معظمهم من الهنود كذلك.

وتحت شبابيك المقيمية التي تطل على دجلة كانت ترسو باخرة صغيرة من بواخر البحرية الهندية تدعى (كوميث)، بعد أن كانت قد عادت من إحدى سفراتها الشهرية إلى البصرة التي اعتادت أن تقوم بها من أجل المحافظة على النفوذ السياسي البريطاني ما بين القبائل العربية النازلة على ضفاف النهر في الدرجة الأولى، وليس لغرض نقل البريد الذي كانت تفعله أيضاً. وقد كانت الـ (كوميت) هذه قد صنعت للأغراض الاستكشافية في بادىء الأمر، ولذلك كان أول من استخدمها لهذا الغرض

---

[1] Colonel Kemball.

[2] Dr.Hyslop.

في العراق الكولونيل جيسني في أعمال الارتياد والمسح التي أجراها في نهر الفرات، ثم استخدمت للغرض الذي كانت تقوم به في وقت وصول المستر أشر منذ سنوات عدة. ونظراً لأن الأتراك كانوا يحسدون الإنكليز على النفوذ الذي كانوا يتمتعون به ما بين العرب، بسبب الباخرة الوحيدة هذه التي كانت تمخر عباب النهر، فقد استوردوا باخرة أخرى باسمهم وجعلوا مكان رسوها بالقرب من (كوميت).

وقد صادف حلول عيد الميلاد في اليوم التالي لليوم الذي وصل فيه المستر أشر وجماعته إلى بغداد، ولذلك استحصبهم الدكتور هيسلوب وكيل القنصل العام معه إلى حفلة أقيمت بالمناسبة في الدار التي كان يشغلها مبشرو (جمعية تنصير اليهود)[1] الإنكليزية التي قلبت إلى كنيسة. وحضر الدعوة كذلك ضباط الباخرة وعوائلهم، وعدد قليل من الإنكليز المقيمين في البلاد، ويهوديان متنصران كان أحدهما متقدماً في السن والآخر من الشبان. أما في المساء فقد جمع الدكتور (هيسلوب) جميع الإنكليز الموظفين والمقيمين في بغداد في حفلة عشاء فاخرة بلغ مجموع الحاضرين فيها عشرين شخصاً، كان من جملتهم نواب أوده.

وفي صباح اليوم التالي ذهب (المستر أشر) بصحبة الدكتور (هيسلوب) لزيارة الباشا. وكان قصره المحاط بعدد كبير من المتسكعين الـ (باش بوزوغ) والخيالة غير النظاميين مبنى ضخم من الطابوق بحالة نصف خربة. وكانت ساحاته، المكتظة بالمتسكعين والقرويين وأبناء العشائر القادمين من البادية والأهوار، محاطة بطارمات خشبية طويلة متأكلة.

وقد استقبلهما الباشا في غرفة كبيرة لها شبابيك مطلة على النهر، عارية الجدران، خالية من الأثاث الكثير. وبعد تقديم القهوة والغلايين بالطريقة المعتادة، والسؤال عن صحة الباشا، استفسر من (المستر أشر) عن أسباب مجيئه إلى بغداد. ثم استصوب فكرته في زيارة كربلاء والنجف في أثناء سفرته المزمعة إلى خرائب بابل، وأخبره

---

[1] Society for the conversion of jews.

بسلامة الطريق إليها؛ لأن جماعات عنزة التي كانت تخرج للغزو كانت قد انقطعت عن ذلك منذ مدة من الزمن.

ويقول فضلا عن ذلك إن هذا الموظف الكبير، الذي يعيش في مثل هذه البساطة ويحرم نفسه من مظاهر الأبهة والترف القريبة إلى نفس كل شرقي، كان رجلاً في الخامسة والخمسين أو الستين من عمره وكانت تبدو في ملامحه وتقاطيع وجهه إمارات المكر والدهاء. وقد كان محاطاً بعدد قليل من رجال حاشيته وكُتابه، الذين كانوا هم أيضاً على جانب من المكر على ما يبدو. ومع هذا فقد كان يحكم في باشوية كانت تمتد قبل هذا من ديار بكر إلى الخليج العربي وبذلك كانت تضم في داخل حدودها مملكتي آشور وبابل. وكان الراتب الذي يتقاضاه هذا الرجل المقتر يساوي راتب حاكم الهند العام ومخصصاته، عدا ما كان يبتزه بأشد ما يمكن من ضروب الجور والتعسف من الأعراب وسكان القرى والأرياف المنتشرة في أنحاء الولاية العظيمة الخاضعة لحكمه.

وبعد أن استحصلوا على وعد من الباشا بتزويدهم بكتب توصية مناسبة إلى حكام كربلاء والنجف والحلة غادروا ديوانه مخترقين جموع الناس التي كانت تزدحم بها الطارمات والممرات. ويضيف (المستر أشر) إلى هذا قائلاً (أن الباشا لابد من أن يكون عند طبع الرحلة قد عاد إلى استانبول بعد انتهاء مدة حكمه القصيرة في الولاية، وهو يحمل معه الثروة التي لابد من أن تكون ثروة جسيمة إذا ما صدقنا قسماً مما ترامى إلينا بعد ذلك من أخبار عن أنواع الضغط والتعسف). وقد قضى يومه ذلك في السير والتجوال في الأسواق التي تعد أعظم أسواق المدن التركية بعد أسواق استانبول على حد قوله، لأن عقود الآجر التي كانت تعلوها مرتفعة ومجهزة بالفتحات الكافية للإضاءة. وقد شاهد (المستر أشر) دكاكينها واسعة ملأى بالسلع والبضائع من جميع الأصناف، ومنها مقدار كبير من الكوفيات الملونة بالألوان الزاهية التي تعد من أهم المصنوعات البغدادية.

ويذكر بصورة خاصة أن السكان الذين صادفهم في الأسواق كانوا من كل جنس ودين. فقد كان هناك العربي والتركي والإيراني والكردي والمسيحي، وقد صادف فضلا عن ذلك رجلين إيطاليين جاءا إلى بغداد منذ مدة ففتحا لهما محلاً عامراً لتصليح الساعات والمتاجرة بالحلي والمجوهرات. وكان الازدحام في الأسواق يشتد في فترة الصباح ولاسيما بحيث يصعب على الراكب المرور. ولا يخفى أن أسواق بغداد في تلك الأيام كانت هي الشوارع العامة لوسائط النقل أيضاً. ويقول (المستر أشر) إن أصوات المنادين على السلع في تلك الأسواق، مثل باعة الشربت والفاكهة وما أشبه، كانت تصم الآذان. وكثيراً ما كان يشاهد المستطرق فيها أحد الأكراد أو الإيرانيين وهو يبيع سترته من أجل أن يشتري بثمنها بعض الحاجات المغرية ليأخذها معه إلى بلدته.

ثم يستطرد في وصف ما شاهده في الأسواق فيأتي على ذكر الباعة من مختلف الناس ويقارن البائع التركي بالبائع الإيراني أو المسيحي. فيقول إنه بينما يكون التركي متزمتاً في موقفه تجاه المشتري ومتخذاً مظهر المتفضل عليه، يكون الإيراني أو المسيحي متجاوباً كل التجاوب معه ومدارياً له من جميع الوجوه. ويذكر بعد ذلك ما يذكره الكثيرون من الرحالة والأجانب غيره من أن الأسواق في المدن الشرقية يكون كل منها مختصاً بسلعة من السلع. وهو يثني ثناء خاصاً على الأقمشة الحريرية التي كانت تنسج في بغداد من حيث الصنع والألوان. فقد عرضت عليه عباءات من الحرير السميك الملون باللون الأزرق، المزين بخيوط الذهب بطراز الزينة العربية، فأعجبته اعجابا شديدا بحيث أنه يصفها بكونها جميلة للغاية. ولعله يقصد بهذه (العباءات) الأزر الحريرية الملونة التي كان يلبسها النساء من غير المسلمين ولاسيما نساء اليهود للتحجب في بغداد إلى ما قبل سنوات عدة.

على أنه مع هذا كله يذكر أن قسماً من الأسواق كان بحالة شبه خربة، وبعضها كان خرباً كله. ويضيف إلى ذلك قوله إن التجارة مع كونها كانت ناشطة في بغداد

حينما زارها إلا أنها قد انحطت عما كانت عليه من قبل في الأهمية بحيث يمكن أن يقال أن الانحطاط قد وصل إلى حد الربع، ولاسيما بالنسبة لما كانت عليه في عهد الخلفاء. ويستشهد على حالة الانحطاط التي وصلت إليها بغداد مدينة (ألف ليلة وليلة) بما كانت تضمه في داخل أسوارها من الفسح والمساحات الكبيرة الخالية إلا من أكوام الأنقاض والمزابل.

وبعد أن يشير إلى أن بغداد لم يبق فيها أثر لقصور الخلفاء العظيمة وغيرها من المباني، يعلل ذلك بقوله إنه يبدو أن تطاول عهد الظلم والحكم الجائر في هذه البلاد قد كان له أثره السيء في ربوعها.

ثم يقول إن البادية تحيط ببغداد إلى حد الأسوار التي توجد فيها ثلاثة أبواب يدخل منها الناس إلى المدينة. غير أن إحدى هذه الأبواب وهي الباب الكائنة في الجهة الشرقية من المدينة (الرصافة) قد أغلق وسدت فتحته بجدار من الطابوق منذ أن خرج منه السلطان مراد الرابع عائداً إلى استانبول بعد أن توفق في استردادها من الصفويين (١٦٣٨). ولا شك في أنه يقصد بهذا (باب الطلسم) التي نسفها الأتراك قبل انسحابهم من بغداد في أيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٧) فلم يبق له أثر في يومنا هذا. ويعلق على هذا بقوله إن سد الأبواب في المناسبات المهمة على هذه الشاكلة هي عادة منتشرة في كثير من البلاد الشرقية، وأن أبا عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر في غرناطه كان آخر طلب طلبه من فرديناند وأيزابيلا قبل انسحابه من عاصمة ملكه التي شُرد منها أن تغلق الباب التي غادر منها قصر الحمراء إلى الأبد.

ومن طريق ما يرويه بالنسبة للسور أن بنات آوى كانت تحتشد بجماعات فيما وراء السور خلال الليل فتأتي إلى أسفله لتقتات على ما يُرمى من أعلى السور من نفايات، ثم تعود إلى مخابئها في أثناء النهار. وكانت بابا السور تغلقان ما بين غروب الشمس وطلوعها في اليوم الثاني، كما كانت تتوكل بحراستهما على الدوام مفرزة صغيرة من الجيش؛ لأن البلاد لم تكن آمنة وكان الأعراب يعبثون بالأمن إلى حد

الأبواب نفسها فيروعون المسافرين والأهالي المبتلين بهم وبالحكام الأتراك في الوقت نفسه.

وحينما يتطرق إلى بناء الدور في بغداد، ووجود السراديب والسطوح فيها للاستفادة منها خلال الصيف، يشير إلى أن الحرارة في الشتاء تهبط إلى حد الانجماد في كثير من الأحيان. ويروي عن الكابتن (سلبي) ربان الباخرة كوميت التابعة للمقيمية قوله أنه شهد تراكم الثلج فوق بعض أجزاء باخرته بسمك بوصة واحدة في سنة من السنين. أما في الصيف فإن الحرارة تصل بارتفاعها إلى (١٤٠) درجة فنهرنهايت في كثير من الأيام. وبعد ذلك يقول إنه صعد فوق أعلى منارة من منائر بغداد فألقى نظرة جوية عليها، ولذلك نجده يصفها بالوصف المألوف. ولا شك في أنه يقصد بهذه المنارة منارة جامع سوق الغزل المعروفة، التي كانت في منشئها منارة جامع القصر على عهد العباسيين؛ لأن كثيراً من الرحالة الآخرين ومنهم فريزر (١٨٣٤) وبكينغهام (الذي جاء إلى بغداد في أيام داود باشا) قد فعلوا الشيء نفسه.

ومن أهم ما يذكره عن معالم بغداد في منظرها العام إشارته إلى قباب المشهد الكاظمي التي تبدو من بعيد ومنائره المذهبة، وقباب سائر الجوامع، مع انتشار البساتين والنخيل بين البيوت، وامتداد الصحراء المحيطة بالمدينة إلى حد عقرقوف الذي يشير إشارة خاصة إليه. ومما يقوله (المستر أشر) عن تل عقرقوف إنه بناء بابلي يزيد على المئة قدم في ارتفاعه، وإنه لم يتأكد أحد إلى ذلك اليوم من أسباب بنائه ولا من أي شيء آخر عنه. غير أنه لم يكن ملماً على . ما يبدو . بتاريخ هذه المنطقة وتفصيلاته؛ لأن الثابت اليوم لدى المنقبين منذ منتصف القرن التاسع عشر (أي قبيل مجيء رحالتنا هذا إلى العراق) بأن التل المذكور هو زقورة المدينة الكشية (القصبة) المعروفة باسم (دور كوريكالزو). وقد أيدت تنقيبات مديرية الآثار العراقية قبل سنوات هذا القول، وتوصلت إلى أن زمن تأسيس المدينة يعود إلى عهد الملك كوريكالزو الأول الذي

حكم في بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأن المدينة ظلت مأهولة إلى العصور المتأخرة من العهد البابلي المتأخر (١١٠٠-٥٣٨ق.م).

مشاهداته في كربلاء:

وفي يوم ٢٨ كانون الأول ١٨٦٤ غادر (المستر أشر) بغداد متوجهاً إلى كربلاء والنجف وأطلال بابل، يصحبه وحاشيته قواس المقيمية البريطانية، بعد أن عبر جسر الزوارق عن طريق المدينة القديمة على حد قوله. وبعد أن مر ما بين البساتين لمسافة قصيرة صارت تمتد أمامه البادية التي لا يحدها سوى الأفق، ولا يخترقها هنا وهناك غير بقايا الجداول والأنهر القديمة التي كانت تحمل الخصب في مياهها إلى التربة المتعطشة. وهو يقول إن هذه البراري الشاسعة تبدو، على الرغم كونها يبابا بلقعا، وكأنها ملاذ آمن للطيور لأنها مغطاة في كثير من بقاعها بالعاقول الذي يرتفع بوصات عدة عن الأرض.

فإن مئات الألوف من القطا الذي يحجب بطيرانه الشمس المائلة للمغيب عن الرائي بأسرابه الكثيفة في بعض الأحيان، تعيش على براعم هذا النبات وتقتات بفروعه الغضة. ويبدو أن هذه الطيور. التي تبلغ في حجمها حجم الحجل وتشبهه في مظهره العام على الرغم لونها الغزالي الأصفر. تعيش بأعداد هائلة في حواشي الجزيرة العربية بأجمعها. وهي طيور وحشية من الصعب أن تمكن هواة الصيد من التقرب إليها إذا وجدت بأسراب كبيرة، لكنها حينما توجد بجماعات صغيرة تتراوح واحدتها بين العشرة والعشرين تصبح أليفة إلى حد كبير ولا تنفر من المقترب إليها. وكثيراً ما يصطادها الأعراب بنصب الشراك لها، ولا يصطادونها بإطلاق النار عليها؛ لأنهم نادراً ما يضيعون الخراطيش في اصطياد الحيوانات الصغيرة. أما سكان المدن فإن القطا غير مرغوب فيه عندهم إلا في النادر، لأنهم لا يقدرون مثل هذا الصيد اللذيذ المتيسر في متناول أيديهم على ما يبدو. فإن لحم القطا كثير الشبه بلحم الحجل في طعمه عند الطبخ.

ويذكر بعد ذلك أن قافلتهم مرت بمجاري نهرين مندرسين كبيرين، هما نهر صرصر ونهر ملكا اللذين ينسب حفرهما إلى نبوخذ نصر. وكان هذان النهران يستخدمان للملاحة وسير السفن في قديم الزمان ما بين دجلة والفرات، ولإرواء المزروعات في الوقت نفسه. وكان الإمبراطور تراجان قد أصلح شأن نهر ملكا واستخدمه للملاحة خلال حربه مع البارثيين (الفرثيين). ومما يذكره كذلك أن الطريق إلى كربلا يوجد فيه خان لاستراحة القوافل بين كل خمسة أو ستة أميال.

وقد وصل إلى كربلا عن طريق المسيب التي عبر الفرات من فوق جسرها المصنوع من الزوارق. فوجد المسيب ذات سوق صغيرة يتيسر فيها الكثير مما يحتاجه الزوار والمسافرون، ولاسيما المأكولات التي تناول منها اللبن الخاثر (اليوغورت) والزبد والخبز الحار. وقبل الوصول إلى المدينة المقدسة مر ما بين البساتين الممتدة على جانبي جدول الحسينية. ويذكر أنه شاهد عدداً من الكرود – التي يطلق عليها مكائن رفع الماء – منصوبة على طول هذا الجدول من الجانبين. وكان (المستر أشر) قد بعث رسولاً قبل وصوله يحمل كتب التوصية إلى قائمقام كربلاء، ولذلك فتحت باب السور لقافلته عند أول وصوله إليها بعد مغيب الشمس. وقد مرت قافلته ما بين أزقة البلدة الضيقة التي كانت تضيء ظلمتها الفوانيس المعتمة التي بعثها القائمقام تحمل أمامه. وحينما وصلوا إلى داره استضافهم في بيته وأنزلهم في غرفة خربة تقع في إحدى زواياه.

وقد ألفى البلدة عندما تجول فيها خلال اليوم الثاني بلدة ذات حركة غير يسيرة ونشاط ملموس على الرغم عدم اتساعها، لأن أسواقها كانت تزدحم بالزوار الذين أتوا لزيارة ضريح الإمام الحسين عليه السلام. وهنا نجده يورد في الرحلة قصة الإمام مع يزيد، وكيفية مجيئه إلى كربلا، وقتله ظلماً وعدواناً من قبل عبد الله بن زياد وأتباعه، ويأتي على ذكر الكثير من الحوادث التاريخية المعروفة بشيء غير قليل من الدقة والإنصاف نقلاً عما كتبه غيبون في تأريخ الإسلام. ويختم سرد القصة بقوله إن الشيعة

من المسلمين يقيمون في كل سنة مراسيم العزاء المحزنة تخليداً لبطولة الحسين واستشهاده فينسون أرواحهم فيها من شدة ما ينتابهم من الحزن والأسى.

والظاهر أن كربلاء قد أعجبت رحالتنا هذا، إذ يقول إنه لم يجد فيها علامات الركود والانحطاط التي شاهدها في البلاد التي مر بها خلال رحلته. وقد كان كل شبر متيسر فيها من الأرض مشغولاً بالبيوت المتراصة بعضها بجانب بعض، والتي كان بعضها في مرحلة التشييد. وقد وجد فيها عدداً من مسلمي الهند مقيماً في بيوت قريبة من الضريح المقدس، كما لاحظ بين الزوار كثيراً من الإيرانيين والأفغانيين الذين تحملوا مشاق السفر البعيد للتبرك بزيارة الإمام الشهيد كذلك. وعلى هذا فهو يذكر بهذه المناسبة أن البلدة بالنظر لقدسيتها ووضعها هذا لا يمكن أن يسمح للمسيحيين بالإقامة في داخل أسوارها؛ ولذلك كان من الصعب أن يسمح له ولحاشيته بالدخول في بعض الأماكن على الرغم وجود قواسين اثنين من قواسي القائمقام في صحبته. ولم يسلم من النظرات الشزراء المخيفة حينما كان يمر بالأسواق والطرق في كثير من المناسبات.

وحينما وصل إلى الفناء الممتد بين يدي الباب الكبير للصحن الشريف للتفرج من بعيد استعجله القواسون خوفاً من تجمع الناس والمتعصبين من حولهم، ووقوع ما لا تحمد عقباه. على أن أحد القواسين أخذهم إلى دار تاجر من التجار كان قد سكن بغداد ردحاً من الزمن فاتصل بالمقيم البريطاني في قضاء حاجة له. فرحب بهم في بيته حينما علم بأنهم إنكليز، وأخذهم إلى شباك من شبابيك البيت يطل على الصحن الشريف ويتسنى لهم منه أن يلقوا نظرات مطمئنة على الجامع بأكمله.

وهنا نجده يصف الداخل فيقول إن ساحة للصحن المحيط بالضريح المقدس، والمحاطة هي نفسها بالبيوت، لم تكن مبلطة. وأن جنائز المتنفذين من الشيعة والموسرين الذين كان بوسعهم دفع الرسوم والمصاريف المطلوبة كانت تدفن فيه. فإن ثمن هذا الامتياز يمكن أن يكلف مبلغاً كبيراً جداً في بعض الأحيان، ومن الممكن في

بعض الحالات دفن بعض الناس بالقرب من الضريح المطهر كذلك بعد دفع مبالغ باهضة. لكن المألوف على ما يقول هو أن تزور الجنائز التي يؤتى بها إلى كربلاء ويطاف بها حول الضريح المقدس، ثم تؤخذ للدفن في أي مكان آخر في المقابر المعروفة وتجبي الحكومة التركية ضريبة قليلة على الجنائز في باب البلدة، لكن محاولات كثيرة كانت تجري بين حين وآخر للتهرب من دفع الضريبة هذه بطرق شتى. ويروي بعض القصص في هذا الشأن. لكنه يذكر بالمناسبة أن الجهات المسؤولة في باب المدينة لا تسمح بادخال عدد كبير من الجنائز إلى البلدة مرة واحدة، لأنها تصل بأعداد كبيرة في بعض المواسم بحيث يؤدي دخولها إلى انتشار الأمراض وازدحام الطرق والأزقة في داخل البلدة بها. فقد تصل في قافلة واحدة من إيران ألف جنازة في وقت واحد، وكل واحدة منها يكون في صحبتها شخص أو أكثر من أقارب المتوفي. وقد رأى (المستر أشر) في طريق عودته إلى بغداد قافلة لا يقل عدد المسافرين فيها عن مئة شخص، وكان قسم منهم يمتطي الخيول وقسم آخر يمتطي الإبل، وكانت النساء يحملن في التخت روان الذي يحمل على البغال. على أن قسماً كبيراً منهم كان يسافر راجلاً خلال سفرته الطويلة المتعبة.

وبعد أن يصف القبة والمنائر المذهبة، والجدران والأفاريز المزينة بالقاشاني الجميل وغيره بالوصف المألوف المعروف، يقول إنه ذهب لمشاهدة مرقد الإمام العباس عليه السلام كذلك، فشاهده من سطح أحد المنازل القريبة من الصحن، وهو يقول إنه كثير الشبه بمرقد الحسين عليه السلام. إلا أن صحنه الضيق المحيط بالحضرة كان غير مبلط، وكان يستعمل للدفن كذلك. على أنه وجد صحن العباس مكتظاً بالمعممين الذين كانوا يجلسون فيه للتسكع وتزجية الوقت، أو لأداء الصلاة على حد قوله. ولم يستطع في كلتا الحالتين معرفة شيء عن داخلية الحضرة.

وحينما تجول في الأسواق الضيقة وجدها مكتظة بالناس إلى أقصى الحدود، ووجد السلع المعروضة للبيع فيها لا تتجاوز حاجات الأعراب المحيطين بالبلدة

ولوازمهم مثل الكفافي والأعقلة والعبي وما أشبه، إلى جانب الأطعمة والمؤن. ولذلك كان الزوار يشترون ما يحتاجون إليه من أسواق بغداد عادة. على أنهم وجدوا أنواعاً عدة من الأحجبة والتعاويذ يصنعها الجوهريون في البلدة ويعرضونها للبيع إلى الزوار. وعندما اشترى القواس الذي كان بصحبة (المستر أشر) واحدة منها له أنزعج البائع واسترجعها من القواس بغضب لاعتقاده بأن المسيحي لا ينبغي أن يحملها وفي داخلها بعض آيات القرآن الكريم.

وقد تسنى للرحالة وجماعته أن يتجولوا بعد الظهر في البساتين الكائنة في خارج أسوار المدينة المقدسة فوجد فيها سواقي المياه تخترق تربتها الخصبة بكثرة. وهو يقول إن هذه البساتين تعد منتجعات مؤنسة لأهالي كربلاء في أيام الصيف، فهم يخرجون إليها ليجلسوا في ظلها الوارف ويتمتعوا بالـ (كيف) على حد قوله، الذي يميل إليه الشرقيون بوجه عام، ويشربون القهوة والشربت بين حين وآخر.

في الطريق إلى النجف:

هذا وقد غادر (المستر أشر) كربلاء بعد أن لم يجد موجباً للبقاء فيها، وتوجه منها إلى (طويريج) أي الهندية. فألفاها تقع على فرع الهندية من الفرات، وعلى مقربة منها تل أثري قديم. ومما يذكره في هذا الشأن أن فرع الهندية ظل ردحاً طويلاً من الزمان يفيد الأراضي الممتدة في جانبيه بمياه الري والغرين الذي تحمله. لكن الإهمال وسوء الحكم قد أديا به إلى أن يفيض فيغرق مساحات كبيرة من الأرض، فتكونت من ذلك بمرور الزمان مستنقعات لا يعيش حولها أو في الجزر الصغيرة الموجودة في وسطها إلا بعض الأعراب الذين يزرعون الرز. وقد كانت تراقب فرع الهندية وتعنى بالمحافظة على صدوره وسدوده قبيلة عربية صغيرة تتعيش بالزراعة، غير أن التعسف الذي لاقته من والي بغداد قبل نصف قرن (من زيارة الرحالة) قد أدى بهذه القبيلة إلى أن ينفذ صبرها فترحل عن المكان وتتخلى عن القيام بهذا الواجب الحيوي. ويبلغ طول البحيرة المتكونة من هذه المستنقعات حوالي ستين إلى سبعين ميلاً.

ولأجل أن يذهب إلى النجف الأشرف إستأجر (المستر أشر) سفينة شراعية من طويريج تقله مع جماعته إلى الكوفة، وقد كانت سفينة متسعة متينة الصنع فيها دقل واحد وشراع كبير. غير أن ذلك كله لم يجدهم نفعاً؛ لأن حركة الهواء كانت غير كافية لتسيير السفينة، ولذلك اضطر الملاحون إلى سحبها بالحبل خلال مسافات طويلة. ثم رأوا من المناسب أن يستأنفوا الرحلة إلى الكفل على ظهور الجياد. وقد سارت بهم الجياد على ضفاف الهور الممتد إلى ما يقرب من الحلة.

وحينما وصلوا الكفل التي وجد فيها مرقد النبي حزقيال ألفوا البلدة مسكونة باليهود في الغالب. وبعد أن باتوا ليلتهم في مخيم نصبوه على ساحل الجدول، ذهبوا في صباح اليوم التالي لزيارة القبر الذي كانت تعلوه قبة مخروطية الشكل، بيضاء اللون، تشبه قبة الست زبيدة[1] الموجودة في بغداد على حد قول المستر أشر. وبعد أن اجتازوا الصحن الخارجي المبلط دخلوا من باب خطت في أعلاها كتابات عبرية واضحة، فألفوا أنفسهم في كنيس بني بطراز معماري خاص تعلوه قبة صغيرة وتغطي جدرانه رسوم تتألف من الأزهار في الغالب. وكان هناك أيضاً عدد من الكتابات العبرية المكتوبة على ألواح خاصة. وفي مقابل المدخل كانت هناك باب أخرى تؤدي إلى القبة التي يقوم فيها القبر، الذي كان عبارة عن منصة من الآجر يبلغ طولها ستة أقدام وعرضها أربعة وارتفاعها ستة. وكان مغطى بقطعة من الشال الإيراني. وقد وجدوا هناك بعض اليهود المتسكعين، وحاخاماً تجول معهم في مرافق المرقد. فعلموا منه أن اليهود يأتون لزيارة المرقد مرة في السنة من جميع أنحاء بلاد آشور وبابل، ويخيم هؤلاء عادة حوالي البلدة بالآلاف على حد تعبيره فيمتد مخيمهم إلى مسافات غير يسيرة طولاً وعرضاً.

ومما يذكره أشر في هذا الشأن كذلك أن دفن النبي حزقيال في هذا المكان هو شيء أكيد بالنسبة لأقدم المصادر المتيسرة في تلك الأيام، وأن المسلمين كانوا حتى

---

[1] وهي قبة السيدة زمرد خاتون لكنها معروفة بقبة الست زبيدة.

ذلك الحين يعدون المكان مقدساً. وقد وجد الرحالة بنيامين الطليطلي الذي تجول في هذه البلاد خلال القرن الثاني عشر عدداً كبيراً من اليهود يعيشون في بابل يومذاك، وهو يصف القبر كما شهده يوم زيارته فينسب تشييد الكنيس حوله إلى جقونيا ملك اليهود الذي كان اسمه منحوتاً على أحد جدران البناية إلى جانب اسم النبي حزقيال نفسه. ويذكر بنيامين أن مكتبة كبيرة كانت موجودة هناك أيضاً، وكانت فيها أقدم المخطوطات وأثمنها، وأن دروس (يوم الكفارة) كانت تقرأ من الأسفار الخمسة المكتوبة بخط النبي حزقيال نفسه. وكان من عادة رأس الجالوت في بغداد، ووجهاء اليهود، أن يزوروا هذا الكنيس سنوياً بصورة منتظمة وفي صحبتهم جموع غفيرة من الحجاج اليهود القادمين من جميع الأنحاء الشرقية. غير أن تلك العهود الذهبية التي كان يسمح بها الخلفاء المتساهلون قد ذهبت ولم يسمح بمثلها من جاء بعدهم من الحكام المتدينين. وقد اختفت المكتبة كذلك، ولم يبق فيها غير كتب حديثة نسبياً. ولم يعد بالإمكان العثور على الستين كنيساً التي أشار إلى وجودها الرحالة بنيامين في القرن الثاني عشر للميلاد.

هذا وقد خلف أشر وجماعته خيامهم وبعض لوازمهم في الكفل بعد ذلك فاستقلوا السفينة إلى الكوفة بأمل العودة إليها واستئناف السير إلى بابل وبغداد منها. فوصلوا الكوفة بعد ساعات عدة. وهنا يبدأ بالإشارة إلى تاريخ الكوفة الزاهر، وزوال معالم تلك المدينة الكبيرة بحيث لم يبق منها سوى أكوام غير مهمة من الأنقاض والخرائب تنتشر هنا وهناك. ولم يجد في موقع الكوفة إلا بعض الأكواخ القائمة على ضفة النهر، ومن هناك استأجر البغال التي أقلته مع جماعته إلى مشهد علي الذي كان يُشاهد من بعد ستة أو سبعة أميال على حد قوله. لكن الغريب أن المستر أشر لم يذكر شيئاً عن مسجد الكوفة الذي شاهده عدد من الرحالين خلال القرن الثامن عشر وكتبوا عنه بالتفصيل من مثل الرحالة نيبور (١٧٦٥).

مشاهداته من النجف:

ويصف النجف بكونها بلدة تقوم في سهل منبسط على ساحل بحيرة تتكون من مياه فرع الهندية الفائضة (لا شك في أنه يقصد بهذا بحر النجف)، وهي مربعة الشكل محوطة بأسوار عالية، لكنها تخلو من بساتين النخيل التي تحيط بكربلا فتسبغ عليها منظراً جميلاً؛ ولذلك يجدها الزائر جرداء عارية تتألف في وسطها قبة الإمام حينما تتساقط عليها أشعة الشمس، وتعلو مآذنها فوق السطوح المحيطة بها. وقد دخل المستر أشر إلى النجف من باب متهدمة في السور على حد قوله، وهناك لقي (الباش بوزوغ) الذي كان قد أنفذه قبله، فجمل له هذا الرجل رجاء مدير الناحية بالنزول في بيته. وبعد المرور في أزقة متعرجة وجدوا أنفسهم بعد قليل في مسكن المدير، وكان المدير رجلاً بديناً، صغير الحجم قصير القامة، يختلف في مظهره عن أي تركي آخر صادفه المستر أشر من قبل. ولم يخف عن ضيوفه تذمره من حكومته وادعائه بأنه لا هو ولا جنوده ولا موظفوه كانوا يتسلمون رواتبهم الحقيقية، وإنما كانت الرواتب يختلس منها قبل أن تصل إلى أصحابها.

ولما كان المدير حديث التعيين في النجف فقد أصيب إصابة فظيعة بال (أخت) البغدادية التي انتشرت دماملها في أنحاء جسمه المختلفة فكادت أحداها أن تعطل أحد ذراعيه عن العمل. ولذلك أصر على (المستر أشر) وجماعته بأن يطلبوا من الدكتور (هيسلوب) طبيب المقيمية ببغداد أن يبعث له بالدواء الشافي لها، لأنه كان يعتقد أن الأطباء الأوربيين لهم علم بكيفية معالجتها. وقد كان المدير فضلا عن ذلك فقيراً، عاجزاً عن اغناء نفسه مثل سائر زملائه لعدم تيسر الفرص اللازمة للاختلاس والنهب في هذه البلدة الجرداء. ومن أجل هذا كان يهمه جداً أن يخبروه بحقيقة وجود النفائس واللقى الثمينة في أطلال (برس نمرود)، التي أخبرهم بأنه لولا خشيته من إضاعة المال في الحفر والتنقيب لبدأ بحفرها في الحال. وكان يكرر الاستفسار منهم عن مصير الآثار القديمة التي أخذت من الموصل وبابل إلى انكلترا. وحينما قيل له إنها

وضعت في المتاحف حيث يمكن للمتعلمين أن يدرسوها ويكتبوا عنها، فيتسنى لهم معرفة أحوال الأقدمين الذين نحتوا الصخور، تحير فكره وارتبك عليه الأمر.

وبعد برهة من الزمان أخذهم إلى غرفة مجاورة ليفضي إليهم بحديث سري. فطلب إليهم أن يخبروا المقيم البريطاني في بغداد بأن القسم الأعظم من المبالغ الكبيرة التي كانت تبعث بوساطته من مسلمي الهند وملوكهم للتوزيع في النجف وغيرها كان يختلس ويصرف على غير الصدقات وتعمير العتبات. وكان الحل الوحيد في نظره أن تسلم تلك المبالغ له نفسه ليقوم بتوزيعها بالطريقة الأصولية على ما يزعم. ويذكر (المستر أشر) أن هذه المبالغ كانت تزيد على الخمسين ألف باون في السنة. ولعله يقصد بهذه المبالغ واردات وقف أوده التي تولت الحكومة البريطانية توزيعها على العتبات منذ أن بدأت باستعمار الهند، ووضعت يدها على ممتلكات البعض من ملوكها ونوابها المسلمين.

ومما يذكر عن النجف في هذه الرحلة أن (أشر) وجماعته ذهبوا راكبين للكشف على مغارة كبيرة تقع بالقرب من ساحل بحر النجف، على بعد سبعة أو ثمانية أميال من البلدة. ولم يجدوا ما يستحق الذكر عنها سوى أنها كانت منحوتة في الحجر الرملي على ارتفاع خمسين قدماً عن مستوى السهل المحيط بها، وأن فتحتها يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام فقط.

وبعد أن يصف ما رآه في الصحن الشريف من دار مجاورة، ويقارن ذلك بما رآه بالطريقة نفسها في كربلا، التي شاهدها فوق الباب، يذكر شيئاً عن البلدة نفسها. وأهم ما يذكره في هذا الشأن أنها بحالة خربة جداً مع كونها تضم ضريح الإمام علي عليه السلام، وأن نفوسها لا تكاد تتجاوز الخمسة آلاف نسمة أي بمقدار عشر سكان كربلاء التي كانت تعد على جانب أكبر من الازدهار والتقدم في نظره.

بين النجف وبغداد:

وقد غادر المستر (أشر) النجف في يوم ٤ كانون الأول ١٨٦٥ متوجهاً إلى بغداد عن طريق الكفل. وهو يقول إنه قطع المسافة إلى الكوفة بساعتين، ومن هناك استقل مع جماعته سفينة شراعية كان يسحبها الأعراب العراة طول الوقت لأن حركة الهواء كانت في اتجاه معاكس يومذاك. ولهذا استغرق قطع المسافة إلى الكفل ثماني ساعات متمادية. وكان السفر بالسفينة شيئاً لابد منه لأن الطريق البري الممتد بين الكوفة والكفل كان يهدده أعراب عنزة في ذلك الوقت. وقد شاهد على الضفتين في بعض المناطق العرب (المائيين) وهم يزرعون الرز على حد تعبيره، ويسكنون في أكواخ متألفة من حزم طويلة من القصب الذي كان ينمو بكثرة وافرة في كل مكان بحيث يغطي مجموعات الأكواخ ويحجبها عن الرائي في بعض الأحيان. ولا أدري كيف وجد الفلاحين يزرعون الرز في منتصف الشتاء، ولعله يشير بذلك إلى ما صادفه من بقايا الموسم السابق.

وبعد أن وصلوا إلى الكفل تهيأوا للسفر إلى الحلة بأمل التوقف قبلها لزيارة (برس نمرود) وأطلاله. وأهم ما يذكره في هذا الشأن أن تل الخرائب هذا يرتفع بمقدار ٢٣٥ قدماً عن مستوى السهل، ويبلغ محيطه حوالي (٢٢٨٦) قدماً. ويوجد على مقربة من التل العالي الكبير تل آخر أقل ارتفاعاً منه، لكن هذا التل لم يستطع أحد التنقيب فيه لأنه كان مغطى بمقبرة تعود للمسلمين. ويقول كذلك إن الآثاريين مختلفون بينهم حول ماهية البناء الذي كان قائماً في هذا الموقع، وأن جميع الأجر الموجود هناك مختوم باسم نبوخذ نصر. على أن المستر (أشر) نفسه يرتأي بأنه معبد بيلوس الذي يشير هيرودوتس إلى ارتفاعه على شكل مصاطب ثمان أحداها فوق الأخرى، لم يضف إلى ذلك قوله إن اليهود يعتقدون بأن (برس نمرود) هو برج بابل الذي ورد ذكره في التوراة. وهناك وصف له في رحلة بنيامين الطليطلي الذي يصفه كما كان في عهده، ويذكر في وصفه أن جدران القمة المبنية بالآجر قد هدمتها الصواعق.

وقد اجتازوا قبل الدخول إلى الحلة منطقة تكتظ بالحدائق وبساتين النخيل. وكانت الحلة تبدو خربة مهملة كالمعتاد على ما يقول المستر أشر، فاقتادهم في شوارعها المهملة قواس كان باشا الحلة قد بعثه ليستقبلهم فيأخذهم إلى دار أعدت لينزلوا فيها. وكانت هذه الدار تعود إلى أمين صندوق الباشا أو (خزنه داره) الذي كان قد اتصل من قبل ببعض التجار الإنكليز في بغداد. ومما يذكره عن البلدة أن نفوسها كانت تبلغ حوالي عشرة آلاف نسمة، وأنها كانت تخلو من آية بناية عامة تستحق الذكر بصورة خاصة، وأن دورها كانت تبنى في الغالب من مواد البناء التي كانت تجلب من خرائب بابل القريبة منها.

والظاهر أن مقر الباشا كان في الجانب الشرقي من الحلة، لأن المستر أشر يقول إنهم بعد أن وصلوا من الكفل بمدة وجيزة عبروا الجسر لزيارة الباشا الذي كان قد وصل حديثاً لتسلم وظيفته في الحلة نقلاً من عكا بفلسطين. وكان قد بقي عدة سنوات عدة في عكا ولذلك وجدوه منزعجاً جدا الانزعاج من نقله عنها كما وجدوه يعاني ما يعاني من أصابته بالأخت البغدادية وانتشار دماملها في بعض أنحاء جسمه. وكانت داره تطل على النهر الذي يبلغ في ذلك الموقع حوالي مئتي ياردة في العرض. لكنني أرجح أنه شبلي باشا العريان من أعيان الدروز في لبنان وكان قد جاء به السردار الأكرم عمر باشا في ١٨٥٧ حينما عين والياً في بغداد وكلف بتطبيق التجنيد الإجباري في العراق. وقد اشتغل مدة طويلة من الزمان في الفرات الأوسط أي في المنطقة التي تشمل اليوم ألوية الحلة والديوانية وكربلاء.

ويشير (المستر أشر) كذلك إلى أن البلدة كانت محاطة من جميع الجهات ببساتين النخيل التي يقضي فيها الأهلون كثيراً من وقتهم خلال الصيف. أما الأسواق فيقول إنه ألفاها شبه خربة، وأن السلع التي تباع فيها كانت تقتصر في الغالب على حاجات الأعراب المحيطين بالبلدة. ومما لاحظه بالنسبة للسكان أنهم كانوا متذمرين مستائين

من الحكومة نظراً للتأديبات المتكررة التي كانت تنزلها الحكومة بالعشائر في تلك المنطقة. ومن أجل هذا كانت تحتفظ بحامية قوية في الحلة.

وقد قضى (المستر أشر) وجماعته يوماً كاملاً في زيارة آثار كيش في تل الأحيمر، وآثار بابل التي تسمى مجيليبة أو القصر. وهو يورد معلومات عامة مجملة عن كل منها، ويشير إلى الحفريات التي أجراها (المستر ريج) القنصل البريطاني في بغداد في أوائل القرن التاسع عشر. ويورد كذلك مقتبسات مما كتبه لايارد في كتبه المعروفة عن هذه الأطلال والخرائب، ومنها أن بابل قد بنيت بالتصميم نفسه العام الذي شيدت بموجبه نينوى. والمعروف أن لايارد قد عرف بحفرياته واكتشافاته في منطقة نينوى لاسيما. ويضيف إلى ذلك قوله أن لايارد عثر في بابل على أناء خطت عليه كتابة كلدانية وجد عند حل رموزها أن اليهود من سبي بابل هم الذين كتبوها، وأنهم كانوا يستعملون هذا الإناء حرزاً حريزاً ضد الأمراض والأرواح الشريرة.

وفي صباح يوم ٧ كانون الثاني ١٨٦٥ غادروا الحلة متوجهين إلى بغداد، وبعد مدة من الزمان عبروا جسراً يمتد فوق جدول كبير وسرعان ما وصلوا إلى المحاويل فتوقفوا فيها إلى ما يقرب من الغروب، وعند ذاك توجهوا إلى خان الاسكندرية الكبير على حد قوله، ونصبوا خيمتهم في صحنه لقضاء ليلتهم تلك فيه. وكان هذا الخان، على ما يقول (المستر أشر) قد بناه على سبيل البر والخير رئيس وزراء إيران في عهد فتح على شاه القاجاري لزوار مشهد علي.

وقد تركوا الاسكندرية في صباح اليوم التالي وهم يأملون الوصول إلى بغداد بأسرع ما يمكن. فصادفوا عند أول خروجهم منها قافلة كبيرة جداً من قوافل الزوار الإيرانيين الذين كانوا في طريقهم إلى كربلاء. وكان الكثير من هؤلاء، على ما لوحظ من كثرة رجال الحاشية ونوعية العفش، من أغنياء الناس. وكان مع القافلة كذلك خط طويل من البغال المحملة بالجنائز، وقد قدر (المستر أشر) أن تلك القافلة لا يقل

عدد الأشخاص المنضوين تحت لوائها عن خمسة آلاف، وكلهم كان يحث الخطى ليحظى بزيارة قبر الحسين الشهيد.

في بغداد ثانية:

وحينما عادوا إلى دار المقيمية في بغداد، بعد غيبة دامت اثني عشر يوماً، نظمت سفرة في المقيمية لصيد الخنازير الوحشية في منطقة عقرقوف دعي إليها عدد من الأوربيين المقيمين في بغداد. فأقلت المدعوين باخرة المقيمية كوميت إلى منطقة تقع في شمال الكاظمية، ومن هناك ركبوا خيولهم وأخذوا يتجولون بين آجام البردي والقصب للبحث عن صيدهم، لكن جفاف الموسم في تلك السنة وصلابة الأرض قد أديا إلى توجه الخنازير إلى جهات أخرى فعاد المدعوون بخفي حنين.

وقد صادف في طريق عودتهم بالباخرة أنها قد شلهت، ولم يستطيعوا إخراجها من مأزقها إلا بعد ساعتين. ويتحدث المستر أشر بهذه المناسبة عن جفاف الشتاء في هذه السنة وقلة المياه الموجودة في دجلة، ويذكر ما هو معروف عن الزيادات الشتوية التي تسببها الأمطار والزيادة الاعتيادية الكبيرة التي تحصل في موسم الربيع من كل سنة. ثم يتطرق إلى ما يحدث في بعض السنين من الفيضانات التي تتدفق فيها المياه الطاغية فتغمر البراري الوسيعة المحيطة ببغداد حتى تصبح وكأنها جزيرة في وسطها، وإلى نمو الكثير من القصب في مختلف الأماكن. ويعرج من ذلك على حديث الكواسج والأسماك في دجلة، فيروي ما سمعه من الكابتن سلبي ربان البحرة العائدة للمقيمية عن اصطياد كوسج طوله ثلاثة أقدام أمام المقيمية في إحدى السنين. ويذكر بالمناسبة أن أهالي بغداد المسلمين ينظرون إلى السمك كما ينظرون إلى الخنزير، فيختلفون بذلك عن اليهود المغرمين بأكل السمك. ولا يخفى أنه مخطىء في قوله هذا، لأن البغداديين والعراقيين كافة معروفون برغبتهم في أكل السمك ولاسيما (المسقوف) منه. ولعل ما سمعه المستر أشر في هذا الشأن منشؤه كراهية المسلمين لسمك الجري المعروف وعدم أكله، وكذلك عدم أكل لحم الكواسج.

في الطريق إلى البصرة:

وفي يوم ٢١ كانون الثاني ودع المستر أشر وكيل المقيم البريطاني الدكتور هيسلوب وزوجه، وغادر بغداد مع جماعته متوجهاً إلى البصرة بالباخرة كوميت العائدة للمقيمية. وهو يقول إن باخرة الحكومة (بغداد) أقلعت بعدهم كذلك، وكأن ربانها كان بانتظار إقلاعهم ليتعقبهم. وبعد أن قطعت كوميت مسافة سبعة عشر ميلاً نزل مع جماعته إلى البر في سلمان باك لمشاهدة أطلال المدينة التاريخية الشهيرة طيسفون (طاق كسرى)، عاصمة الملوك الساسانيين. ومما يذكره بالمناسبة أن طيسفون بنيت بالأحجار المنقولة من خرائب بابل على ما ترامى إليه، مع أنه غير ميال إلى تصديق الخبر نظراً لبعد المكان وصعوبة النقل. وقد كانت في بادىء أمرها معسكراً لملوك البارتيين [الفرثيين] أقيم على ضفة دجلة المقابلة لمدينة سلوقية الأغريقية، ثم توسعت بالتدريج فأصبحت قرية كبيرة، وتطورت أكثر من ذلك فغدت في حجم المدن الكبيرة. أما سلوقية فقد سميت باسم سلوقس نيكاتور الذي بناها في مصب نهر ملكا، أو قناة نبوخذ نصر، في دجلة بعد أن خربت بابل التي ظلت تعد أعظم مدينة في الشرق كله خلال مدة طويلة من الزمان. وقد وصل عدد نفوس هذه المدينة الإغريقية في عهد من عهودها الزاهرة إلى ما لايقل عن ست مئة ألف نسمة.

ونشأت طيسفون في مقابلها بعد ذلك فاتصلت بها بجسر يقال إن أثراً من آثاره ما زال موجوداً يمكن مشاهدته عند انخفاض مستوى الماء في قاع النهر. وقد تسنى للملوك الساسانيين أن يوحدوا المدينتين فيجعلوا منها عاصمة واحدة حينما تعاظم شأن الديانة الزردشتية القديمة واسترد ملوك إيران صولجان الملك بأيديهم. ولذلك أطلق العرب اسم المدائن على العاصمة المذكورة. وفي القرن الثاني للميلاد غزا الرومان هاتين المدينتين ونهبوهما عن آخر ما فيهما، والمقول إن ثلاث مئة ألف نسمة من سكانهما قد هلكوا حينما اندلعت في أرجائهما النيران.

ثم يشير المستر أشر إلى فتح العرب للمدائن في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، على أثر انتصارهم في موقعة القادسية. فتهدمت وصارت انقاضها تستعمل في بناء بغداد والبصرة على حد قوله، وفي الوقت الذي لم يبق من سلوقية أثر يذكر فإن قصر الساسانيين المنيف في طيسفون لم يبق منه سوى طاق هائل جسيم يبلغ مئة قدم في ارتفاعه، وثمانين قدماً في عرضه، ومئة وخمسين في عمقه، مع بعض أطلال الأجنحة الأخرى المبنية بآجر سميك مربع يبلغ طول ضلعه قدماً واحداً وسمك الواحدة منه بوصتين ونصف. وهنا يورد ما يذكره غيبون عن الثورة التي استحوذ عليها العرب في المدائن عند الفتح نقلاً عن المؤرخ العربي أبي الفدا. ويشير لاسيما إلى الزولية الحرير التي كانت تزدان بها إحدى ردهات القصر، وكان يبلغ طولها ستين ذراعاً وعرضها ستين ذراعاً كذلك. ويصف نقوشها الزاهية، ثم يقول إن القائد العربي اقنع جنوده بالتنازل عن حقوقهم فيما ليسر بزينتها وصنعتها الزاهية ناظري الخليفة. غير أن الخليفة العادل تغاضى عن كل ذلك وتقاسمها مع إخوانه في المدينة، فبلغت قيمة القطعة التي أصابت الإمام علي منها وحدها عشرين ألف درهم.

ويذكر كذلك أن القصر قد أهمل أمره وتهدم بعد ذلك بالتدريج. وكان العرب يكرهون هواء المنطقة ويستوخمون موقعها، فأشار القائد العربي على الخليفة ابن الخطاب بنقل مقر الحكومة من المدائن إلى غربي الفرات. ويضيف إلى ذلك قوله إنه على بعد مئات عدة من الياردات عن الطاق يقوم قبر سليمان الفارسي حلاق النبي، الذي يزوره حلاقو بغداد في كل سنة ويعدون أنفسهم مشمولين بحمايته ورعايته. وأن المنطقة قريبة من الأطلال ترتادها الأسود بكثرة في بعض أوقات السنة، وتطارد الخنازير الوحشية فيها فتقتات عليها في الغالب.

وفيما بين النهر والطاق يوجد قبران متهدمان يضم أحدهما رفات (سكرتير النبي)، ويضم الآخر رفات الخليفة المستعصم بالله الذي قتله هولاكو حفيد جنكيزخان حينما استولت جموع التاتار المتوحشة على بغداد عاصمة الإسلام يومذاك

فهدمتها. ولعله يقصد بسكرتير النبي الصحابي حذيفة بن اليمان (رض) الذي ولي الحكم في المدائن فدفن فيها. وخوفاً من أن يجرف النهر قبره الذي أصبح قريباً من حافته فقد نقلت الحكومة العراقية رفاته من محلها المذكور سنة ١٩٣١ ودفنتها في ضريح خاص يقع اليوم بجانب قبر سلمان الفارسي.

وحينما استأنفت الباخرة سيرها في دجلة إلى الجنوب نجد المستر أشر يتعرف في الباخرة على اثنين من عرب المنتفك كان شيخهما في بغداد قد رجا المستر سلبي ربان الباخرة بإيصالهما إلى منزليهما في الطريق. وقد قصا عليه شيئاً من ضروب الجور والتعسف التركي الذي كان يصيب العشائر العربية على حد قوله. فمن جملة ما كانت تفعله الحكومة التركية من هذا القبيل أن حاصل الرز أو غيره حينما كان يقارب النضج كانت تفرض الحكومة في العادة ضريبة عليه وتأمر موظفيها المختصين بجبايتها في الحال. ولما كانت العشائر التي تزرع هذه الحاصلات هي عشائر مستقرة غير متنقلة، تعتمد على الزراعة في معيشتها بالكلية، فإنها لا تستطيع الابتعاد عن متناول يد الحكومة بسهولة للتخلص من الضريبة كما كان يفعل البدو الرحل، ويتحتم عليها تسديدها بكل وسيلة؛ولذلك كانوا يجدون أنفسهم مضطرين إلى الاستدانة مقدماً (على الأخضر) من صرافي بغداد الذين يكونون يهوداً في الغالب. فيخف الصراف عادة إلى إقراضهم بفوائد مجحفة، بشرط أن يسددوا له الدين بعينيات من الصوف أو غيره فيتقبلها بنصف السعر الذي تباع به في السوق تقريباً. وقد نهبت عشيرة من عشائر المنتفك بهذه الطريقة مؤخراً فتكبدت مبلغاً يقدر بثلاثين ألف قران إيراني، أو حوالي ألف وخمس مئة باون إنكليزي. وكان الصراف اليهودي قد ساوم المستدينين على استرجاع المبلغ، الذي يعد مبلغاً جسيماً بالنسبة لحالتهم ووضعهم، بشكل عينيات من الصوف تحسب عليهم بنصف السعر الدارج. وليس من المستغرب والحالة هذه أن يتقول الناس بما مفاده إن بعض الموظفين الكبار في الولاية كانت لهم حصة في أرباح الصراف ومعاملاته.

وقد ألقت الباخرة مراسيها في الليلة الأولى وتوقفت عن السير خلال الليل خوفاً من مشاكل ضحولة الماء. غير أنها لم تفعل ذلك في الليلة الثانية، وإنما تابعت السير خلالها حتى وصلت إلى الكوت عند طلوع الفجر. ويقول المستر أشر إن الكوت هي قرية عربية كبيرة يقال أنها تقع في منتصف الطريق إلى البصرة. لكن الباخرة لم تتوقف في الكوت أيضاً فتابعت السير حتى شاهد الركاب بعد مدة من الزمان منزلاً كبيراً لأعراب بني لام في الجانب الشرقي من النهر، وكان يمتد إلى مسافة نصف ميل تقريباً. وقد استطاع المستر أشر أن يشاهد الكثير من الأشياء في الساحل، وتجمع أفراد القبيلة من رجال ونساء لمشاهدة المركب عند مروره؛ولذلك نجده يصف ألوان الملابس البراقة، وبنات القبيلة اللواتي يقول عنهن أنهن كن على جانب غير يسير من الجمال في شكلهن وحركاتهن الرشيقة.

ولا يذكر المستر أشر شيئاً عن بلدة العمارة عند مروره بموقعها الحالي، لأنها لم تكن قد مصرت بعد، وإنما كان هناك في موقعها موضع يقال له (الأوردو) أي المعسكر. وقد سمي بهذا الاسم؛ لأن الوالي العثماني في بغداد مصطفى نوري باشا (المسمى كاتب السر) حينما جرد جيشاً لتأديب فيصل الخليفة شيخ البو محمد سنة ١٨٥٩ (أي قبيل مجيء أشر إلى العراق) أنزل جيشه فيه فخيم في أرجائه. لكنه يقول إن الباخرة مرّت بجدول كبير في الجانب الشرقي يستمد ماءه من مياه دجلة فيصبها في الأهوار الشاسعة المترامية الأطراف، وهو عريض وعميق بحيث يستوعب كميات كبيرة من الماء، ويسمح بالملاحة بمقياس غير يسير. ويطلق على هذا الجدول كما يقول (الخود) أو (الحود) لكن الصحيح هو نهر الحد. وتكاد هذه الأوصاف تنطبق على ما يسمى اليوم بالكحلاء. ثم مرت الباخرة بعد ذلك بجدول آخر يسميه العرب أم الجمال، وهو يمتد في الجانب الغربي فيأخذ مياهه من دجلة ويصبها في الفرات أو بالعكس على حد قوله. ولا يضاهي هذا الجدول جدول الأول في الاتساع لكنه مع ذلك على درجة من السعة بحيث يستوعب كميات غير قليلة من الماء.

ثم مرت الباخرة ليلاً بالعزير بعد ذلك، ويقول أشر بالمناسبة إن بنيامين الطليطلي يؤيد في رحلته المعروفة وجود هذا المرقد منذ القدم في موقعه الحالي. وحينما استأنفت انحدارها إلى الجنوب مرت بالقرنة، محل التقاء دجلة بالفرات، ودخلت في شط العرب. وقد ظلت تسير فيه حتى وصلت إلى البصرة في صباح اليوم الرابع من يوم مغادرتها بغداد، فألقت مراسيها في المعقل الذي يطلق عليه اسم ماركيل المعروف بين الناس في يومنا هذا أيضاً.

البصرة:

ومما يذكره المستر أشر في رحلته عن هذا المرسى أنه وجد بالقرب من باخرتهم سفينة إنكليزية كانت قد وصلت إلى البصرة مؤخراً وهي تحمل شحنة كبيرة من البضائع إلى بعض التجار الأوربيين المقيمين في بغداد. أما في الساحل فقد شاهد بيتاً مربع الشكل مشيداً بالطابوق، كان يسكن فيه نائب القنصل البريطاني في البصرة. وكان يبدو منعزلاً تمام الانعزال لوحده ولم يكن يحيط به، أو يوجد بالقرب منه، شيء سوى عدد من النخيل.

وكانت ترسو على بعد من كوميت من جهة الجنوب السفينة المسلحة (دجلة) التي كانت تبحر ما بين البصرة وبوشهر مرة في كل شهر. وقد خف إليهم ربانها الكابتن داير على إثر رسوهم في المرسى وهو متلهف لسماع آخر الأخبار التي يمكن أن يكونوا قد وقفوا عليها؛ لأنها مهما كانت متأخرة وقديمة تعد شيئاً جديداً بالنسبة له، حيث أن الأخبار التي كانت تصل عن طريق البادية أسرع من التي كانت تصل عن طريق بومبي. لأنه كان من المألوف يومذاك أن يبعث أحد الأعراب مرة في كل أسبوع من دمشق إلى بغداد وهو يحمل على بعيره رزم البريد التي كانت تصل عن طريق بيروت. وتستغرق هذه السفرة الطويلة في البادية نحو تسعة أيام يقطع الساعي في أثنائها حوالي ثمان مئة ميل عبر البادية، ويغير جمله ثلاث مرات يقضي في أحداها ثلاثة أيام متتالية لا يصادف خلالها أي نوع من الماء. وكثيراً ما كان هذا الساعي

البدوي يتعرض خلال سفرته إلى السلب وتحمل الأذى، ولذلك لم يكن يسمح له بحمل أي شيء معه غير أكياس البريد لئلا يكون السلب الذي قد يعثر عليه السلابون إغراء لهم بتكرار التعرض للسعاة من أمثاله في أوقات أخرى.

وعندما تمشوا إلى البصرة في اليوم الثاني وجدوها بلدة صغيرة نصف خربة على حد تعبيره، يسكنها خمسة أو ستة آلاف نسمة. وقد كان منظر بيوتها وأسوارها المتهدمة يدل على مقدار ما كان قد أصابها من انحطاط وتأخر بعد أن كانت، بحكم موقعها المهم، تتمتع باحتكار المعاملات التجارية ما بين الهند وبلاد العرب فضلاً عن سواحل الخليج العربي. وكان كل شيء فيها يدل على أن الانحطاط آخذ طريقه فيها من دون توقف، كما تدل عليه الجدران المتداعية والمساكن المتروكة. ويأسف المستر أشر على وصول البصرة إلى هذا المقدار من التأخر وهي التي كانت من قبل مدينة ثرية مزدهرة، تمتلىء مخازنها بالسلع المستوردة من الشرق والغرب، وتزدحم شوارعها بالتجار القادمين من البلدان والأماكن البعيدة. ولا شك في أن هناك أسباباً عدة لما حل بالبصرة وصيرها في مثل هذه الحالة، لكن السبب الرئيس في ذلك هو الحكم التركي الفاسد آنذاك.

ثم يقول المستر أشر إن البصرة لم تزل مركزاً لباشوية من الصنف المتأخر، وما لم ينشأ خط السكة الحديد الذي ظل يفكر به المعنيون بالأمر مدة طويلة من الزمان، فإن مصيرها المحتوم لا يصعب التكهن به. وبعد أن انتهت مدة بقائه في البصرة، التي لم تكن تزيد على يومين، ودع الكابتن سلبي ربان الباخرة التي أقلته إلى البصرة وقرر السفر إلى بوشهر على ظهر السفينة المسلحة (دجلة) بدعوة من ربانها الكابتن داير. وهو يثني في الرحلة على الكابتن سلبي ويطري معلوماته عن هذه البلاد التي قضى فيها كثيراً من سني حياته بحيث أصبح محبوباً ومحترماً عند العرب الذين سنحت له فرص كثيرة أحسن فيها إليهم.

ولما كانت الريح غير ملائمة لسفر (دجلة) إلى بوشهر تأخر يوماً آخر، قضاه في مباراة جرت في لعبة (الكريكيت) ما بين بحارة كوميت وبحارة دجلة. وقد فاز بحارة كوميت في المباراة بعد أن بذلوا الكثير من الجهد، وكانت المباراة مثيرة في نظر العرب البصريين الذين ظلوا يتفرجون عليها وهم لا يعرفون قواعدها.

وأخيراً، أقلعت (دجلة) في يوم ٢٦ كانون الثاني ١٨٦٥ إلى بوشهر في طريقه إلى بيرسبولس بالقرب من شيراز. وكانت (دجلة) قد صنعت في بومبي، وزودت بخمسة مدافع كان أحدها من عيار ٢٤. أما البحارة فقد كانوا من الإنكليز، لكن القوة المحاربة فيها كانت تتألف من جنود السباه المحليين. وهذا وضع يدعو للاستغراب، لأنه ينطوي على قيام جنود محليين بمراقبة بحارة أوربيين وضبطهم على ما يقول.

المحتويات

هذا الكتاب:

تحيل مجموعة الرحلات المجتمعة في كتاب **معرفة الشرق في العصر العثماني الرحلة الأوربية إلى العراق** إلى ثلاثة أجيال متناوبة زارت أهم مقاطعات وأقاليم الإمبراطورية العثمانية (ولايات العراق) في ثلاث مراحل تأريخية مختلفة في سياقها التاريخي الدقيق، فهي للوهلة الأولى تبدو غير منسقة أو مقصودة الدوافع الشخصية التي تؤطر أغلبها لكن عند التفكير في السياقات الناظمة لتلك الرحلات وأصحابها يلحظ أن هنالك حاجة جماعية لتلك المجتمعات لاستكشاف عالم الشرق ومراكزه الرئيسة ليس فقط سياسياً وإنما انثربولوجياً وإثنياً وذلك ضمن محاولة الإجابة عن الأسئلة ذات الجاذبية في استكشاف الآخر ومعرفته.

ISBN 978 - 1 - 927946 - 19 - 0
978-1-927946-19-0

